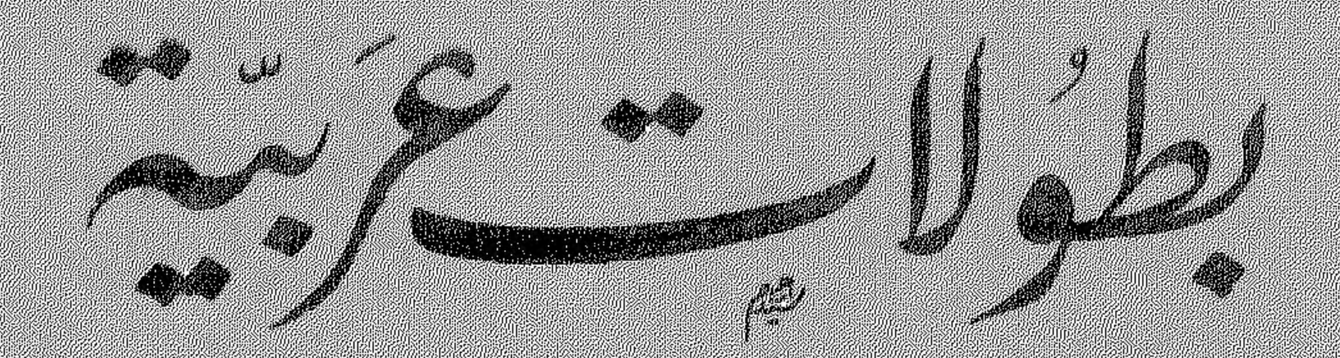


محمود الشرقاوي

١٩٦١

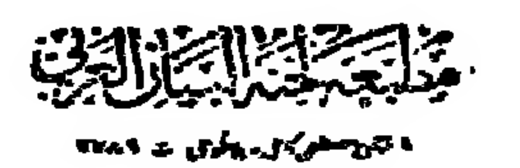
الناشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد فريد
القاهرة

الطبعة الأولى

بطولات عربية

محمود الشرقاوي

ملتزمة الطبع والنشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد بك فريد (عماد الدين سابقا)


مطبعة لجنة البيان العربي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

عشرات الكتب ، وآلاف الصفحات ، أُلِفَتْ وكتبتْ فى تاريخ وطننا العربىّ منذ مئات السنين . ولكن السِّمةَ الغالبة عليها جميعاً أنها تؤرِّخ للملوك والحكّام والوزراء والعلماء وأصحاب الذكر والوجاهة والتصَدّر . ولكنها لا تحفَل بسواد الناس وعامّتِهم . تتحدّث عن الحروب والغزَوات والفتوحات . ولكنها — حتى فى حديثها عن الحروب والغزوات — تؤرّخ للقوّاد وأمراء الجُند . وتهمِل ، فى الأكثر الأعمِّ ، مَن سِواهم ، مهما أظهروا من الشجاعة والفِداء ، وأبدوا من التضحية والبلاء .

تاريخ يخدم الملوك والسادة والكبراء . ويهمل السوادَ والأفراد . ولولا ما نجده عند ابن إياس ، والجبرتىّ خاصة ، ما استطاع مؤرخ أو كاتب أن يجد سيرةَ مجاهد أو بطل من أوساط الناس أو أبناء الشعب .

وما نجده عند الجاحظ مثلاً من سيرةٍ لصعلوكٍ أو مغامر ، كان الغرضُ

منه الإغراب والتطرّف . والتحدثُ به إلى الأمراء والملوك ، لتسليتهم . وتقع على كثير منه ظلالُ الشكّ والوضع .

وقد دعوتُ ، فى الجزء الثالث من كتابى : « دراسات فى تاريخ الجبرتى » إلى مقاييسَ جديدة لدراسة تاريخنا الحديث[1] ، فقلت إن دراسة هذا التاريخ ، منذ الفتح العثمانىّ ، ومنذ استيلاء محمد على على الحكم خاصة ، « خاضعةٌ لمؤثّرات غير أمينة وغيرِ منصفَة ، وغير مفيدة . بل هى ضارّة بالغة الضرر على وجه التأكيد .

أما أنّها غير أمينة فلأنها كانت منحازَةً إلى جانب الخصومة مع شعبنا ، وكأنها لا تؤرّخ له ، بل تجمع المآخذ ، والآثام ، والمثالب فتلصِقها بهذا الشعب ، الذى خذِل أمام العثمانيين . ولكنه لم يفرّط فى حق وطنه وشرَفه ، بل دافع عنهما أروَع دفاع وأكرمه . وشعوبُ العالم كلها يتناوب حياتَها النصرُ والهزيمة .

وأما أنها غير منصفة ، فلأنها لم تبحث عن العِلَل الطارئة . والعوامل الدخيلة التى انتهت به إلى الهزيمة أمام العثمانيين ، ثم أمام الفرنسيين والإنجليز . بل جعلوا سبب ذلك دوافعَ أصيلة فى تكوينِ الشعب نفسِه

(١) « دراسات فى تاريخ الجبرتى ، مصر فى القرن الثامن عشر » : ص ١٠٩ — ١١٢ من الطبعة الثانية .

و إدراكه، والمقاييسِ التى يقيس بها أهدافَ الحياة والـكرامة والشرف، والحرصِ على الحرية والعزة . وكان يجب أن نبحث عن هذه وتلك .

وأما أنها ضارّة بالغة الضرر. فليس يخفى ذلك على مفـكّر أو متأمّل. لأنها تهدر فى نفوسنا كل معنى كريم ، وكل إحساس بالنخوة الوطنية ، وكل شعورٍ بمجد الماضى وكـفاحه .

ولا يزال كثيرون منا ، ومن رجال التربية خاصة ، يذكرون دنلوب وسياسته فى وزارة المعارف . ولم يكن دنلوب شخصاً أكثرَ مما كان فـكرة ومذهباً . الغايةُ منهما إذابةَ كلّ شعور قومى ، وكل معنى من معانى « التربية » الوطنية والفردية والسياسية . ولم يفعل الإنجليز ذلك عبثاً ، بل كان هدفهم منه التمـكينُ لسلطانِهم واحتلالِهم . كأنهما قَدَر لا مفرّ منـه ، وأن تاريخ مصر كلّه ، والقيمَ الفردية والجماعيّـة للمصريين . أساسُهما وقوامهما : الخضوعُ لحـكم الغير والرضى به » .

ومن هنا تبدو الأهمية البالغة لتأريخ حياتنا ، فى الماضى القريب والبعيد، من جديد . وتبدو ، أكثرَ وأكثرَ ، أهميةَ هذه الأسس الجديدة التى دعَوْنا وندعو لالتزامها فى كتابة هذا التاريخ ودراسته . لتـكون هذه الدراسة تزْكيةً لعواطفنا الوطنية والقومية، وتذكيراً لنا، ولشبابنا خاصة، بماضى آبائهم وأجدادهم ، وما بذل كثير منهم فى سبيـل الحق والشرف

والوطن العربى . وليكون هذا التاريخ سجلاً صادقاً لأمجاد ماضينا، ولننصف به كثيرين من أبطالنا الذين ضحوا وكافحوا و بذلوا ثم نسيهم تاريخ وطنهم . ولم يكن لهم ذنب إلا أنهم كانوا من الشعب ، أو أن الظلم والظلام غلبهم وقهرهم . . . !

حتى مَن هزم من الملوك ، مثل سلطان مصر الشهيد طومان باى ، أو فشل من الثائرين بعد نجاح ، مثل صاحب الزنج ، نجد أن التاريخ لم ينصفه . إن لم يكن خذله هو أيضاً أو أهمله أو تجنى عليه وظلمه ، فصدق فى هؤلاء وأولئك ما قيل من شعرٍ قديم:

والناسُ مَن يلقَ خيراً قائلون له

ما يشتهى ، ولأم المخطىء الهبَل . . .

* * *

وفى كتابنا هذا : « بطولات عربية » : دراسة لحياة طائفة من أبطالنا العربِ فى التاريخ القديم والحديث . على هذه الأسس الجديدة. من هؤلاء الأبطال مَن بذل حياته ودمه فى صحارى المكسيك ووهادِها ، أو فى أدغال إفريقيا ، عندما كانت تسمى: «القارة المظلمة». أو على طوابى الإسكندرية دفاعاً عن الشرف العربى ، أو فى سوادِ العراق ومدنه وحواضره ، دفعاً للظلم وتحريراً للعبيد وطلباً للعدل . ومنهم من بذل حياته ودمه فى بيداء

الشام ، وصحراء العرب ، وسهول فلسطين. تحقيقاً للوحدةِ العربية الكبيرة الشاملة . ومنهم من تصدّى للظلم والجبروت ، وتحدّى إثم توفيق ، أو غدر محمد على . فلم يمِلْ ، ولم يلِن ، ولم يهادِن . حتى قضى شهيداً مأجوراً ، أو بطلاً مذكوراً تضرب حياته للناس المَثَلَ والعبْرة. ومنهم السلطانُ الشهيد الذى كان كفاحه مثلا رائعاً للمعاناة والتضحية والصلابة والبذل والصبر ، كما كان حظّه مثلا للتعاسة والشقاء والعُسْر: ذاك الذى لم يُلاقِ سيفَه مهما يُخْذَلْ ويهزَمْ مرّة بعد مرّة ، حتى يُسفَك دمُه ظلماً كما يُفعل بالمجرمين والقَتَلة والصعاليك. وهو، قبل مقتله ، يجابه عدوّه القاهرَ أمامَ رجاله ويجادِله حتى يُخزيه. ثم يقف أمام جلاّده الذى يضع الحبل حول عنقه فلا ينسى أنه ملك وسلطان ، « فيأمر » الشانِق بأن : أنجز عمَلَك ... ! ويكون ذلك آخر ما نطق من القول. ومنهم الأمير الذى هجَر قصوره وجاهَه وأمواله ليسير من بلاد المغرب فيحارب الفرنسيين فى البحيرة ويهزمَهم ...! منهم المرأة التى أنقذتْ شعبها من المجاعة بحيلتها وشجاعتها ، ومنهم الذى ضحّى حياتَه فى سكون وصمت فعرفنا بطولته وبذْله ، وجهلنا عنه كل شىء ، حتى اسمه ... ! منهم الصبىّ والفتىُ ، ومنهم المسلم والمسيحى واليهودى ، كلهم ضحى و بذَل ، فى سبيل وطننا العربىّ الكبير .

وقد تباعدتْ وحدةُ الزمان والمكان فى هذه البطولات التى سَردْناها

من تاريخنا القديم والحديث . ولكنّ أمراً واحداً يجمعها ويربط بينها : هو أنها صدرتْ من أبطالٍ ضمّهم وطننا العربي الكبير ، وجرتْ أحداثُها على أرض هذا الوطن الكبير .

وفي كتابنا هذا فصول موجزَة عن بطولات خالدة أبداها شباب لم يبلغ بعضُهم سنّ العشرين ، وقعتْ أحداثُها في أزقّة حيّ سيدنا الحسين بالقاهرة ، أو على جبال السند في أقصى الشرق ، أو بين رياضِ غرناطة وأزهارِها ومياهها الجارية في أقصى الغرب . أو على أرض مؤتة في البلقاء من فلسطين الشهيدة . أو بين بطاح المدينة المكرمة ، أو على سوادِ قرية « القَفاعى » من صعيد مصر ، بطولات صنعَها شباب ، وشهدتْها بقاع بعيدةٌ قريبةٌ من وطننا العربيّ الكبير ، بعيدةٌ في الموقِع والمكان ، قريبة أو موَحّدة في الشعور والعاطفةِ والإحساس .

وسيجد شبابُنا خاصّةً ، في وطننا العربيّ الكبير ، من هذه البطولات المبكّرةِ أروعَ الأمثال .

سيَر هذه البطولات وتلك ، أهديها إلى : وطننا هذا العربيّ الكبير .

محمود الشرقاوي

القاهرة : ٣١ مارس ١٩٦١

الفهرس

شباب وبطولة

رايات مصرية على أرض المكسيك

هذه قصة من قصص البطولة النادرة ، سجّلتها فرقة مصرية سودانية فى القرن التاسع عشر ، وكتبت صفحاتها المشرفة بين وهاد بلاد المكسيك وجبالها وأحراشها الموبوءة بالحمى الصفراء والدوسنتاريا .

كانت مصر والسودان ، فى ذلك الوقت ، بلداً واحداً ، يدافع جنوده عن راية واحدة . ويتقاسمون ، فى ظل هذه الراية، الأمجاد والبطولات جنباً إلى جنب .

واقتضت مصالح فرنسا وانجلترا وأسبانيا ، فى سنة ١٨٦١ أن تعلن حكوماتها الحرب على المكسيك ، واشتركت انجلترا وأسبانيا فى هذه الحرب فترة وجيزة ، ثم تخلفتا وتوقفتا ، وتركتا فرنسا وحدها تخوض حربا قاسية . وكانت فرنسا يوم ذاك تحت حكم نابليون الثالث . وبينها وبين مصر علائق وشيجة ومنافع متبادلة بدأها محمد على عندما احتال على حكم مصر واختلسه من أهلها ثم اتخذ من فرنسا حليفاً له وسنداً ، ودامت هذه العلائق يحرص عليها أبناؤه من بعده ويتوارثها ولاة مصر من أسرته السابقة .

وتقدم نابليون الثالث إلى صديقه خديوى مصر سعيد باشا يرجوه فى

أن يمدّه ببعض الجنود السودانيين والمصريين ليستعين بهم فى حرب المكسيك هذه ، بعد أن تخلت عنه حليفتاه : انجلترا وأسبانيا . فلبى سعيد رغبة صديقه الإمبراطور وأرسل له فرقة منهم . مؤلفة من ٤٥٣ ضابطا وصف ضابط وجندى . على رأسهم البكباشى : «جبرة الله» أفندى ، واختير وكيلا له : « محمد أفندى الماس » . وقد أقلع هؤلاء الجنود من الإسكندرية على ظهر الباخرة الفرنسية : « السين » فى ٨ من يناير سنة ١٨٦٣ فوصلوا « فيلا كروز » بالمكسيك بعد سبعة وأربعين يوما من رحيلهم ، وبعد رحلة شاقة مضنية مات فيها سبعة من الجنود . وكان سفرهم من الإسكندرية قبل وفاة سعيد باشا بثلاثة أسابيع .

بقيت هذه الفرقة المصرية السودانية فى المكسيك من ٢٣ فبراير سنة ١٨٦٣ إلى ١٢ مارس من سنة ١٨٦٧ . أى أربع سنوات وسبعة عشر يوما ، اشتركت خلالها فى ٤٨ موقعة انتصرت فيها — كلها — على أعدائها ، بلا استثناء . مع أنها كانت دائما أقل منهم عدداً . ولما عادت إلى فرنسا ، ثم إلى مصر ، كان عدد من بقى من أفرادها ٣١٣ ضابطا وجنديا . أى أنها فقدت فى هذه الحرب الضروس فى أكثر من أربع سنوات لقيت فيها ، مع الحرب ، كثيرا من الأمراض والأوبئة : ١٤٠ جنديا وضابطا .

* * *

وقد أشادت التقارير الفرنسية عن هذه الحرب بما قامت به هذه الفرقة المصرية السوادنية من ضروب البسالة الفائقة والمقدرة الممتازة واليقظة والبراعة فى إطلاق النار . وقالت بعض التقارير إن جنود هذه الفرقة كانوا يختارون للمواقع التى لاتستطيع الجنود الفرنسية أن تصمد فيها .

فى بعض هذه التقارير أن إحدى مدن المكسيك الكبرى حوصرت ثم سقطت ، واستسلم من حاميتها ستة وعشرون جنرالاً ، و ٩٠٠ ضابط ، و ١٢ ألف جندى . وكلفت الفرقة المصرية السودانية بحماية الساحل بين هذه المدينة : [Pwepia] و بين البحر ، فقامت على هذه الحماية ، بكفاية جعلت القائد يقول : « إنه ليس لديه مايبديه بشأنهم ، إلا الإطراء والثناء من كل الوجوه » .

وفى ١٢ أكتوبر سنة ١٨٦٣ نشبت معركة بين هذه الفرقة وأعدائها قال القائد فى تقريره عنها ما يلى : « لقد كلل هذا القتال رؤوس السودانيين المصريين الذين قاموا بأعبائه ، بأسمى أكاليل الفخر . فإنهم لم يبالوا بالنار المنصّبة عليهم من الأعداء ، وردّوهم — وهم يزيدون عليهم فى العدد تسع مرات — مدحورين » .

وفى ٢٢ إبريل من سنة ١٨٦٤ كتب هذا القائد يقول : « لقد سلك السودانيون المصريون مسلكا برهن على بطولتهم ، فقاتلوا عدداً يربو على أضعاف عددهم ، وبقوا محتفظين بما بلغوه من الشجاعة الفائقة » .

ورفع القائد ، فى ١٢ من يوليو سنة ١٨٦٤ ، تقريراً إلى وزارة الحربية الفرنسية يذكر فيه ما أبلت به الفرقة فى الحرب ، ويثنى عليها أعظم الثناء فيقول : « إن هؤلاء السودانيين المصريين يسرفون فى القتال إلى درجة ملحوظة الشجاعة . وإنى لم أر فى حياتى أبداً حماسة تضارع حماستهم . فقد كانت عيونهم وحدها هى التى تتكلم ، وكانت جرأتهم تذهل العقول وتحير الألباب . حتى كأنهم لم يكونوا جنوداً بل أسوداً » .

ووقعت بين ٢١ و ٢٤ يناير من سنة ١٨٦٥ ثلاث معارك كبرى ، اشتركت فيها هذه الفرقة ولقيت فيها كثيراً من المشقة والجهد الذى يصعب احتماله . فكتب عنها القائد العام للمناطق الحارة بالمكسيك ما يلى : « من الصعب أن يجد الإنسان ما يعبّر به عن بأس هؤلاء الجنود وصبرهم على الحرمان واحتمال المشاق ، وبسالتهم ، وحميّتهم فى إطلاق النار ، وجلدهم على السير » .

وكانت هذه الفرقة تحتل متسعا من الأرض مساحته ١٦٠ كيلو مترا ، وكانت بعض نقط الحراسة لا يزيد عدد جنودها على ٣٠ جندياً ، ومع ذلك

استطاعت أن تبث الرعب فى قلوب عصابات من المكسيكيين ، يتراوح عددها بين ٢٠٠ و ٣٠٠ جندى . وقد ذكر القائد عنهم فى ذلك مايلى :

« يالها من يقظة ، ويالهم من أبطال ، تملك حب القيام بالواجب أفئدتهم . فهم لا ينفكون عن القيام به ، حتى أنه لم يحدث مطلقاً أن بوغت جندى منهم فوجد غائباً عن مكان حراسته . وهم يضاعفون ، من أنفسهم ، الحرس ليلا إلى ثلاثة أمثاله ، ليأمنوا كل مباغتة » .

ومن المواقف البارزة لهؤلاء الجنود ، أن عشرين منهم ، على رأسهم ملازم ، أرسلوا لتعزيز حامية فانقض عليهم مائتا مكسيكى وهم فى الطريق ، فأصلوهم ناراً حامية حتى أوقعوا فى صفوفهم الإرتباك ثم أسرعوا إلى كهف تحصنوا فيه ، ودافعوا عن أنفسهم ، حتى وصل إليهم مدد من الجنود فأنقذوهم .

وفى ليلة ٢٥ يوليو من سنة ١٨٦٦ هاجمت فرقة من ٢٠٠ مكسيكى ٢٦ جنديا منهم ، فظلوا يحاربونهم حتى أصبح الصبح ، وانسحب المهاجمون تاركين تسعة من القتلى ، وعدداً من الجرحى .

ومع هذه الشجاعة الفائقة ، والقدرة الممتازة فى القتال والحرب والصبر العجيب على المتاعب والمشقات . فقد امتازت هذه الفرقة المصرية السودانية فى سلوكها وأخلاقها واستقامة أفرادها جميعا ، حتى وصل حسن الثناء عليها

إلى مسامع القادة فى فرنسا ، و إلى مصر بعد ذلك . وسجلته لهم الرسائل والوثائق الرسمية ، مما كان شرفاً لهم ولوطنهم .

وقد نالت هذه الفرقة ، ضباطاً وجنوداً ، تقديراً عظيما وسمعة رفيعة ، فى فرنسا وفى مصر ، بسبب هذه الأعمال الرائعة التى قامت بها ، والأخلاق العسكرية الرفيعة التى التزمتها فى سلوكها . فنال كثير منهم أوسمة الشرف العسكرية الرفيعة .

و بعد أن أنهت الفرقة مهمتها فى المكسيك ، ونالت فيها هذا القدر العظيم من التوفيق والثناء ، عادت إلى مصر . وفى طريق عودتها إليها أقامت فى فرنسا بعض الوقت . ولقيت هناك أعظم مظاهر الترحيب والتكريم والإعزاز .

وضعت تحت إشراف قائد الحرس الإمبراطورى لنابليون الثالث . وأقيم لها عرض عسكرى رائع فى باريس بعد ظهر يوم ٢ مايو من سنة ١٨٦٨ وشهد العرض الإمبراطور نابليون بنفسه ، وكان إلى جواره «ناظر الجهادية المصرية» شاهين باشا . و بعد انتهاء العرض قدم الإمبراطور التهنئة إلى قائد الفرقة على بسالة جنوده وشجاعتهم ومقدرتهم ومساهمتهم بكفاية تامة مشرفة فى هذه الحرب القاسية ، ثم قدم لهم المكافآت .

وعادت الفرقة بعد ذلك إلى مصر فاستقبلت فيها بكل تكريم وتقدير.

أقام لها إسماعيل ، خديوى مصر ، عرضاً عسكرياً فى فناء قصر رأس التين ، وأقام لها لطيف باشا حفلة شائقة تحت رياسة رئيس الوزراء ، شريف باشا. وأنعم إسماعيل على الضباط والجنود برتب عسكرية ، ووجه إليهم ثناء عظيما ، وأبقى مرتباتهم كاملة ، معاشاً لهم بعد اعتزالهم الخدمة . وأمر لهم بمسكن خاص . و بعد ذلك أنعم على قائد الفرقة برتبة الأميرالاى ، ووجه إليه هذا الخطاب ، الذى يدل على عظيم التقدير . ونحن ننشره بنصّه لما فيه من الدلالة ، ولما له من قيمة تاريخية :

« افتخار الأكابر والأكارم ، محمد ألماس بك الذى كان بكباشى الأورطة السودانية المصرية التى كانت بمكسيكا ورقى إلى رتبة أميرالاى ، زيد علوّه .

بما أنه من عادتنا المألوفة ، وسجيتنا المعروفة ، مكافأة ذوى الاجتهاد ، وأرباب الصداقة والرشاد ، وتبليغهم المراد . وقد سرنى ما بدا فى جهات مكسيكا من الفرقة المصرية ، التى قمت بحسن إدارتها ، وما شهدت لها به الألسن فى ميادين القتال ، من براعتها فى فنون الحروب ومهارتها ، إعلاء لشأن الراية العسكرية ، وإعلانا لشرف العساكر المصرية ، مع غربة الأوطان ، وتباعد المسكان . وسرنى أيضا ما ثبت لها من الأخلاق البهية ، والسيرة المرضية والاستقامة الكلية . كما سرنى الآن عودة هذه الفرقة للديار ،

رفعة أعلام الفخر والمسرة والاستبشار » ثم يلي ذلك إبلاغه الإنعام عليه برتبة الأميرالاى .

ومحمد بك ألماس هذا بقي في خدمة الجيش حتى وصل إلى رتبة اللواء، واشترك بعد ذلك في حروب السودان . وكان ، عندما سافرت الأورطة إلى المكسيك ، وكيلا لقائدها . أما قائدها البكباشي جبرة الله محمد أفندى: فقد مات بالحمى الصفراء في مايو سنة ١٨٦٣ ، وأثنت عليه القيادة الفرنسية ثناء كبيراً . وأرسلت حكومتها خمسة آلاف فرنك إلى الحكومة المصرية، لتسلمها إلى ورثته تقديراً منها لشجاعته وحسن بلائه في الحرب .

ويجب أن نقول هنا إن هذا التكريم من إسماعيل وحكومته لم يقصد به تمجيد هذه الفرقة الباسلة والإشادة ببطولتها . بل كان الغرض منه التظاهر والمباهاة ، والتقرب إلى فرنسا وإلى إمبراطورها نابليون الثالث صديق إسماعيل وسعيد من قبله .

والذى يحكم مصر كما كان يحكمها إسماعيل : يستذلّ شعبها ، ويمتهن كرامتها ، ويغتصب أموالها لينفقها في شرّ السبل، كما كان يفعل إسماعيل، الذى يحكم مصر على هذه الصورة لا ينتظر منه أن يمجدّ جنودها أو أن يشيد ببطولاتهم وأمجادهم .

* * *

هذه قصة بطولة عربية ، لا ننتهى من تسجيلها قبل أن نستخلص

منها بعض العبر : من هذه العبر أن حكام مصر وولاتها ، يوم ذاك ، كانوا يرضون عواطفهم الخاصة و يجاملون أصدقاءهم على حساب هذا الدم المصرى الخالص . فهذا سعيد ، خديوى مصر وواليها ، يقدم إلى صديقه نابليون الثالث هذه الفرقة المصرية الباسلة « هدية » له ، يشترك بها ، باسم فرنسا ولتحقيق أطماعها ، فى حرب لا ناقة لمصر فيها ولا جمل ، كما يقول المثل العربى القديم ، ولم تكن فرنسا يومئذ ـ كما لم تكن يوماً ما بعد ذلك ولا قبله — صديقة لمصر ، ولم يكن نابليون الثالث ولا إمبراطوريته حريصَين على خير مصر أو الوفاء لها وتقدير معونتها . بل كانت الصداقة بين سعيد و بين الإمبراطور صداقة الذئب للحمل ، كما يقولون ، لفرنسا منها الغُنْم كله ، وعلى مصر وشعبها المقهور، الغُرم كله . فقد كانت فرنسا ، كما كان الغرب كله يومذاك ، يأتمر بوطننا مصر ، بل بالوطن العربى جميعه ، ويحيك لها وله الدسائس والمؤامرات . بل يغزوهما ، بالحديد والنار قبل ذلك و بعد ذلك ، فى الجزائر وفى مصر ، وفى غيرهما من أقطار وطننا العربى هذا . ولكن سعيداً ، خديوى مصر وواليها « يهدى » جنود هذا الوطن إلى عدوّه و غريمه ليحارب فى مجاهل المكسيك و بين أوبئتها وأمراضها . ليرضى نزوة خاصة له ، و يجامل عدواً فى ثياب صديق .

وماذا أخذ سعيد ، حاكم مصر وواليها ، والأمين على مصالحها ، من

صديقه الإمبراطور لقاء هذه الجهود الفائقة الممتازة التى بذلها جند مصر والسودان هؤلاء . ولقاء الآلام والمحن التى حلت بهم فى أرض المكسيك وبين سهولها ووديانها وجبالها ومن مواجهة أمراضها وأوبئتها وأجوائها...؟.

ماذا أفادت مصر وأفاد حاكمها وواليها سعيد من صديقه الإمبراطور لقاء هذا الدم العربى الخالص الذى أريق على أرض المكسيك فى هذه الحرب ... ؟ .

إنها و إنه لم يفيدا شيئاً ، بل لقد بذل سعيد وبذلت مصر ، فى نفس الوقت ،وأعطيا ،لنفس الإمبراطور. بذل سعيد ، من مصالح مصر وباسمها ، لصديقه الإمبراطور نابليون الثالث نفسه « منحة » قناة السويس ، التى أعطاها لصديقه المهندس الفرنسى دليسبس ، هذه « المنحة » التى لقيت مصر منها من المحنة والبلاء والشقوة والمغارم ما لقيت . وهذا الامتياز الذى نعرف من تاريخه ما نعرف .

وهكذا كانت تساس أمور وطننا مصر ، وتعالج شئونه ومصالحه .

ومن هذه العبر ، أن هذه الفرقة السودانية المصرية أبدت هذه الشجاعة الفائقة وهذا الصبر النادر العجيب ، وهى تحارب فى أرض بعيدة نائية تفصلها عن وطنها آلاف الأميال من الأرض والماء ، وتقاتل عن قضية لا تعرف عنها شيئاً ولا يعرف وطنها عنها شيئاً . فهى تحارب وفى نفوس

أفرادها « فراغ » عاطفيّ نحو قضية لا تثير فى قلوب أفرادها حميّة ولا نخوة ولا غضبا ، وهى — مع ذلك — تبذل فى سبيلها الدم والحياة .

وأبدت الفرقة هذا الخلق الرفيع وهى بعيدة عن وطنها وأرضها وناسها وهم لا يكادون يسمعون أو يعرفون خبراً من أخبارها يسوءهم أن يعرفوه أو يَظهَروا عليه . فكيف لو أن هذه الفرقة كانت تحارب دفاعاً عن أرضها ووطنها وحُرماتها وشرف قومها وأبنائها وأهليها . . ؟ وتقاتل عن قضية تعرفها وتفهمها وتثير فى قلوب أفرادها الحمية والغضب والنخوة . . ؟ وتشعر بالتجاوب مع قومها وناسها وتحسّ أن عيونهم تقع عليهم وأسماعهم تتلقّف أنباء جهادهم وسلوكهم .

لقد حارب أفراد هذه الفرقة بهذه الشجاعة التى رأينا وصفها لأن الشجاعة فطرة قلوبهم ، والموت فى ساحة الشرف والواجب سجيّة نفوسهم . وأظهروا خلق الشمم والترفع لأن الخلق الكريم شيمة لهم وجبلّة فطروا عليها .

وتلك أسمى آيات الشجاعة ، وهذه غاية الغايات فى أصالة الخلق وطهارة النفس واستقامة السلوك .

في الاسكندرية

أحسنت أيها الجندي المصري..!

جاء يوم ١١ يوليو من سنة ١٨٨٢ وقد أحكم الأميرال سيمور تدبيره لضرب الإسكندرية، ولم تكن المدينة ولا حاميتها متهيئة لهذا العدوان الذي لم يكن له مبرر ما. وقد اعترف الأميرال سيمور نفسه في تقاريره التي رفعها للأميرالية البحرية بعد غزو الاسكندرية بأن القوى لم تكن متكافئة، ومع ذلك فقد شهد شهودُ العيان الذين اشتركوا في هذا العدوان، بأن جنود الحامية المصرية دافعوا دفاعا مجيداً مشرفا عن وطنهم وعن شرفهم العسكري

* * *

كانت حامية الإسكندرية تتكون من مجموعة قلاع تمتد من طابية السلسلة إلى طابية العجمي، وكان يدافع عن هذه الحصون ٩٤٨٧ من الضباط وصف الضباط والجنود، منهم المصري ومنهم السوداني والمغربي، ومنهم الشركسي، وكان من ضباط الحامية القائمقام محمد نسيم بك والد المغفور له توفيق نسيم باشا؛ أحد رؤساء الوزارات المصرية السابقة، والبكباشي سيف النصر افندي، والد المرحوم حمدي سيف النصر باشا وزير الحربية الأسبق. و بدأت بوارج الأسطول الإنجليزي تلقي قذائفها على طوابي الإسكندرية من الساعة السابعة صباح يوم ١١ يوليو، فلم تجب عليها الحامية

إلا بعد القذيفة الخامسة ، و بعض الطوابى لم تبدأ قذف قنابلها إلا بعد العاشرة . وكان الخديو ومجلس وزراء مصر قررا ذلك برئاسة عرابى، لتسجيل العدوان على الإنجليز . وفى الساعة السادسة من مساء اليوم نفسه سكتت القلاع المصرية التى كانت مدافعها قديمة مكشوفة ضعيفة التحصين لم تعد لمثل هذا الهجوم الغادر ، ولكن هذه القلاع والطوابى لم تسكت إلا بعد أن سجل رجالها من ضروب الشجاعة والبسالة والمقدرة ما يشرف مصر و يشرفهم ، وقد سقط منهم قتلى فى ميدان الشرف ٧٠٠ ؛ ومات من الإنجليز خمسة وجرح ثمانية وعشرون . وفى هذا أكبر دليل على فقدان التكافؤ ، بل التقارب ، بين قوى الفريقين ، وعلى مبلغ الشجاعة والتضحية التى اتصف بهما جنود هذه الحامية .

* * *

أرسل الأميرال سيمور ، قائد الأسطول المعتدى ، كتابا إلى الأميرالية البحرية البريطانية تاريخه ١٤ يوليو من سنة ١٨٨٢ بعد انتهاء المعارك ودخول الإنجليز الإسكندرية قال فيه :

«ولقد قاتل المصريون قتال الأبطال بأقدام ثابتة، وكانوا يجاوبون النيران الشديدة التى تصبها على حصونهم مدافعنا الضخمة إلى أن قتل عدد كبير منهم»

وأرسل تقريراً آخر إلى الأميرالية بتاريخ ٢٠ يوليو قال فيه عن إحدى

طوابى الإسكندرية : « وكانت حركات بطاريات حصن الاسبتالية من البداية إلى النهاية تساس بطريقةٍ موفقة جداً، ومعأن هذا الحصن أسكت وقتاً ما على إثر ضربة من المدرعة انفلكسيبل ، فإن جنوده لم يتخلوْا عن مدافعهم إلا بعد أن أكرهتهم نيران مدافع هذه المدرعة والأسطول الخارجى على التخلى عنها ».

وكان يشهد الموقعة ميجر من رجال المخابرات البريطانية إسمه «تلك» وقد ألف بعد ذلك كتابا سماه« ذكريات أربعين عامافى الخدمة »فكتب فيه صفحات كلها فخار لحامية الإسكندرية المصرية وتقدير لبطولتها ، ومما قاله فى ذلك :

«وعندى أنه لا يستطيع إلا القليل من الناسأن يؤدّوا واجباتهم بمثل ما أداها أولئك الجنود الذين كانوا فى الحصون فى ذلك اليوم . وليس فى مقدور الإنسان أنيخفى دهشته وإعجابه من أنّ هؤلاء الجنود فى الحالة التى كانت فيها النيران تتحيّفهم من كل جهة ، أرادوا أن يرفعوا أحد المدافع من سقطته التى سقطها ، وفى حالة أخرى ، وهم فى معمعة القتال ، حاولوا أن يرجعوا مدفعاً إلى موضعه ، وهم تحت وابل من النيران[١] » .

---

(١) ص : ٢٨٦ من الكتاب .

وكان جودريتش ، أحد رجال البحرية الأمريكية ، يشاهد المعركة من ظهر السفينة الحربية الأمريكية « لانـكاستر » فـكتب تقريرا قال فيه :

« ... وجاوب المصريون — رغم التفاوت الذى كان بينهما من ناحية عيار المدافع — على النيران المتدفقة من أفواه مدافع الأسطول الإنجليزى إجابة مدهشة لم تـكن متوقعة بتاتاً ، وبشجاعة تستوجب الإعجاب .

وعندما كانت المدرعة انفلسكيبل ترسل مقذوفات زنة كل منها ١٧٠٠ رطل . على حصن الفنار وتصيب ساتره فتثير الأنقاض والأتربة إلى ارتفاع الفنار نفسه ، ويخيل للمرء عند ذلك أنه ليس من الممكن أن يعيش إنسان تحت نيران كهذه ، لايلبث بعد دقائق ، عندما ينقشع الغبار أن يرى جنود المدفعية المصرية ملازمين مواقفهم يطلقون قذائفهم على خصمهم الرهيب . »

وكذلك شهد بمثل هذه الشهادات التى تبيض لها الوجوه ، البارون الإنجليزى ديكيوزل بك ، وكان وكيلا لمصلحة الجمارك المصرية ، وشهد

المعركة من على ظهر السفينة تنجور ، إحدى سفن الأسطول المعتدى[1] ، وشهد بمثلها مسيو سكوتيدس ، وكيل قنصل اليونان فى الإسكندرية إذ ذاك[2] .

وقد قال إن جنود الحامية المصرية كانوا فى ذلك اليوم « يمثلون — بحق — الأبطال الذين يدفعون غارات الجبابرة » .

* * *

و إنى لا أستطيع — وأنا أقرأ هذه الشهادات عن بعض أبناء وطنى — أن أترك شهادة أشعر بنشوة وفخار وراحة قلب ، كلما قرأتها ، وأريد أن أشعر بمثلها قلوب العرب جميعا .

« لقد عجبت من هذه البطولة التى لا يمكننى أن أدرك كنهها ، والتى كان يتحلّى بها الجنود الذين يطلقون مدافع حصن « الاطة » . كما عجبت أشد العجب من الموقف الذى وقفه قائد هذا الحصن قرب سارية علمه ، وهو بمفرده والمنظار فى يده ينظر به الأثر الذى أحدثته المقذوفات التى كانت تنطلق. لقد كان حقاً رجلاً شجاعاً متحدّيا تلك القذائف التى كانت تسقط على حصنه فيجيب عليها » .

---

(١) أنظر ص : ٢٠٠ من كتابه : « ذكريات رجل انجليزى عن مصر » .

(٢) أنظر ص : ١٦٨ — ١٦٩ من : « مصر المعاصرة وعرابى باشا » .

وقد ظل هذا الحصن يقاوم باستماتة وعناد و إصرار حتى أصيب مستودع الذخيرة فيه إصابة مباشرة فنسف. وقتل فيه عدد كبير من الضباط والجنود. أما هذا الضابط البطل ، قائد هذا الحصن ، فقد وصف الكابتن وولترجود — خصمه وغريمه ومحاربه — وصف هذا الكابتن الإنجليزى شجاعته واستشهاده فى هذه الكلمات البسيطة الرائعة :

«و الضابط الذى كان واقفاً فيه وقفة الأسد فى عرينه ، طار فى الهواء هو وسارية علمه [1]»

وقد تجمعت لضرب هذا الحصن وحده خمس بوارج من أقوى بوارج الأسطول الإنجليزى ، ولم يعرف اسم قائده البطل الذى مات هذه الميتة المشرفة .

والكلمات التى أختم بها هذا الفصل هى صورة رائعة كتبها الميجر « تلك » Tulloch ، رجل المخابرات الإنجليزى الذى رأينا شهادته فى أول هذا الحديث:

---

(١) تقرير الكابتن وولتر جود سول قومندان الباخرة « تشلزن »

«لقد كان حقاً من العجب العجاب أن أرى هؤلاء الجنود ، رغم شدة الضرب ، واقفين فى أماكنهم ملازمين مدافعهم ، وقد رأيت أكثر من مرة قذيفة من قذائفنا تدخل فى إحدى كوات مدافعهم فقلت فى نفسى : لقد قضى على هذا المدفع وأمسى فى حيز العدم . ولكن لم ألبث بعد ذلك أن أقول : كلا ! ثم كلا ! فقد كان الجواب من هذا المدفع يعود فى الوقت الملائم ، وقد أتى مرة من المرات بسرعة فائقة جداً ، حتى لم أتمالك نفسى ، فوثبت إلى حافة السفينة ورفعت يدى صائحاً : لقد أجدت العمل أيها الجندى المصرى . . . »

وأعتقد أن القارىء سيعجب مثلى لروح هذا الإنجليزى الذى لا يستطيع أن يخفى سروره و إعجابه بالعمل الجيد ولو كان من عدوه .

الهزيمة ليست عيباً ولا معرة ، ولكن المعرة والخزى هما الإستسلام لها والرضى بنتائجها .

شجاعة وشرف

وقفت حامية الأسكندرية وأبطالها — وخاصة رجال حاميتى حصن « ألاطة » و « الاسبتالية » — هذا الموقف الخالد المشرف الرائع ، ومن ورائها شعب مصر المناضل الصبور .

ودافع عرابى وجيشه وشعبه بعد ذلك فى « كفر الدوار » و « التل الكبير » .

وليس من شأنى الآن أن أفصل أسباب تلك الهزيمة التى أصابت جيش العرابيين وشعبهم يوم ذاك . ولكننا نعرف ويعرف الناس أن من أقوى تلك الأسباب : « الخيانة » .

* * *

دخلت الجيوش الإنجليزية القاهرة ، واستولت على البلاد كلها ، وعاد توفيق ، الحاكم الخائن ، إلى قصره فى عابدين يجلس على عرشه الزائف المخذول ، بعد أن كان يسهر الليل فى « رأس التين » متربصاً خائفاً يرقب

البحر ويهوّن على نفسه الأمر ويمدّ لها حبل الأمانىّ بأن ينتصر الإنجليز؛ فيحكم ويتسلط وينتقم ، ولو أنه انتقام الذليل ، فإن هزم الإنجليز ركب معهم البحر وفارق .

وانتصرت الخيانة والغدر ،وانتهت الثورة العرابية إلى حيث نعرف، وذهب عرابى — كما يذهب المنهزم الشريف الشجاع — إلى خصمه وعدوه الغالب . يضع نفسه تحت تصرفه أسيرَ حرب . ودخل عرابى على عدوّه الغالب الجنرال « رورى لو » فى ثكنات قصر النيل يلبس ثيابه العسكرية ويحمل سيفه . وكان معه طلبه باشا شريكه فى الثورة وفى الحرب وجيء بالزعيمين الشريفين إلى مجلس القائد المنتصر فسلّما سيفيهما إليه . وأمر القائد بحبسهما فى إحدى حجرات « قصر النيل » .

ولم يستطع شعب القاهرة أن يقبل الهزيمة أو أن يستسلم . فثارت فى شوارعها وطرقاتها الثورات ، وخرج الناس فى « باب الشعرية » و « الحسينية » خاصة يحملون العصىّ والهراوات والأخشاب يحاولون أن يقفوا بها فى وجه الجنود الإنجليز . وكانت حركة فيها من ثورة الغضب وفورة العاطفة أكثر مما فيها من السّداد والحكمة . فعالجها محافظ العاصمة : إبراهيم بك فوزى ، حتى صرف الثائرين عنها .

وكان من رأى محمود سامى البارودى أن يستمر الدفاع عن أرض الوطن ، بعد تسليم القاهرة ، وأن ينسحب الجيش والشعب المحارب إلى الصعيد ، ثم إلى السودان إذا لزم الأمر ، وأن تغرق مديريتىْ الشرقية والدقهلية بماء النيل لتعويق الجيش الإنجليزى وتأخير زحفه إلى داخل البلاد . وأن توسق جميع السفن بالذخيرة وتوجه إلى الصعيد لتكون تحت تصرف الجيش والمحاربين . ولكن رأى البارودى هذا لم يلق قبولا .

هكذا انتهت الثورة العرابية ، وانتهت أعمال المقاومة الرسمية والشعبية . وأصبح زعيم الثورة ومناصروه : عرابى وإخوانه ، فى سجن الإنجليز . وكان من الممكن أن يعامل هؤلاء الأبطال وزعيمهم معاملة الجندى الشجاع الذى خانته أقداره ، فسلم نفسه أسير حرب . كان يمكن أن يلقى عرابى معاملة كريمة أولائقة ، كما يستحق أن يلقى محارب شجاع شريف ، دافع عن وطنه وشرف قومه ، ولعل بعض القواد من الإنجليز كان يريد ذلك ويعتقده . ولكن كان من ورائهم خبث السياسة الإنجليزية وشرها . وكان من وراء هذا وذاك حقد توفيق .

وألفت المجالس العسكرية وأجريت المحاكمات لعرابى وإخوانه ، وكانت محاكمات صورية لاصلة لها بالعدالة ولا بالحق والشرف . فإن محاكمة عرابى ، مثلا لم تستغرق سوى ساعة من نهار … !

وليس هذا الفصل خاصا بمحاكمة عرابى ، بل نريد أن نعرض فيه صورة من أبرز صور الشجاعة والشرف التى شهدتها هذه المحاكمات ، والتى كان بطلاها رجلين من مناصرى هذه الثورة ومؤيديها . وهما رجلان ، بل بطلان ، من رجال هـــذا الشعب الذى لم يفتر يوماً عن مناهضة جلاّديه .

إن فى طىّ تاريخنا الحديث فصولا رائعة لـكفاحنا وجهادنا لا تزال مطويّة ، لم تدرس ولم تعرف ولم تقدّر قدرها ، وفى طيّاته بطولات لرجال ضحوا بأموالهم وأرواحهم فى سبيل هذا الـكفاح ، لاتزال سِيَرهم وقصص بطولاتهم مطويّة لم تدرس ولم تعرف ولم تقدر قدرها أيضاً ، وقد ترجمت لبعضهم من قبل[1] ، ولـكنى أعتقد أن أمام الباحثين الجادّين من ذلك شيئا كثيراً .

وهذان البطلان اللذان أتناول موقفهما اليوم فى المحاكمة يضربان للناس مثلا من أعظم الأمثال .

هذان البطلان هما : السيد حسن موسى العقاد ، وكان من أكبر

(١) أنظر فصل : « زعماء وأبطال » فى الجزء الثالث من كتابنا : « دراسات فى تاريخ الجبرتى ، مصر فى القرن الثامن عشر » ص ١١٣ — ١٣٣ من الطبعة الثانية « البيان العربى » .

تجار القاهرة ، والشيخ حسن العدوى وكان من أكبر العلماء .

وقبل أن أذكر موقف هذين البطلين العظيمين وشجاعتهما، أشير إلى ملاحظة ذكرها عرابى نفسه فى مذكراته ، هى أن موقف الشجاعة والبطولة أمام هذه المحاكمة ، هو المقياس الصادق لعظمة النفس ، فكم من رجال نصروا الثورة العرابية وآزروها إبّان سلطانها بدافع الأمل أو الخوف أو المسايرة ، فلما فشلت ، وعادت إلى توفيق ، بحراب الجيش الإنجليزى ، سلطة البطش والقهر ، تنكّروا للعرابيين ، ونكصوا على أعقابهم واستذلّوا لتوفيق ورجاله ، ووقف بعضهم أمام هذه المحاكمة يتنصّل من « تهمة » مناصرة الثورة ، ويقسم أنه برىء منها « حبًّا فى الحياة ، وخوفا من بطش الغالبين » كما يقول عرابى :

أما حسن موسى العقاد ، والشيخ حسن العدوى فقد كانا رجلين من طراز آخر .

لما تمت هزيمة العرابيين، أصدر توفيق فى ٢٨ سبتمبر من سنة ١٨٨٢ أمرا بتأليف لجنة تحقيق مع الذين قاموا بها، وإحالتهم إلى المحكمة العسكرية. وكانت لجنة التحقيق مكونة تكوينا عجيبا مجحفا . إذ كان رئيسها وأعضاؤها من العناصر غير المصرية ، التى قامت الثورة للقضاء على استبدادها وطغيانها .

كانت اللجنة مؤلفة على النحو الآتى: الرئيس اسماعيل أيوب باشا «شركسى».
الأعضاء: على باشا غالب «شركسى». يوسف شهدى باشا «شركسى».
محمد زكى باشا «أرنؤودى». سعد الدين باشا «تركى». محمد بك حمدى
المعظم «غير مصرى». مصطفى بك راغب «تركى» سليمان بك يسرى
«كردى». مصطفى بك خلوصى «عجمى». محمد بك مختار «تركى».
وكانت المحكمتان اللتان ألفتا لنظر دعاوى المحاكمات على هذا النسق
أيضا. كانت المحكمة التى وقف أمامها حسن موسى العقاد والشيخ حسن
العدوى مؤلفة من: الرئيس محمد رؤوف باشا «كردى» الأعضاء: الفريق
إبراهيم باشا «تركى». الفريق إسماعيل باشا كامل «شركسى».
اللواء خورشيد باشا كامل «شركسى». سليمان نيازى باشا «أرنؤودى».
عثمان لطيف باشا «شركسى». سليمان بك نجاتى «شركسى» أحمد حسنين
باشا «مصرى».

فهذه إحدى «المحاكم» التى ألفت لتحاكم زعماء مصر بين على أرض
مصرية باسم «والى» مصر والتى حاكمتهم فعلا —

تؤلف من تسعة أعضاء ليس من بينها مصرى، ورئيسها كذلك ليس
مصريا. بل عدوّ وخصيم لأهل مصر، قام المصريون بثورتهم تلك للقضاء
على سيطرته وسيطرة بنى جنسه، واستبدادهم العنصرى.

وهذه هى « المحكمة » الثانية تؤلف من سبعة أعضاء كلهم غير مصرى سوى عضو واحد ، قد يكون مصرياً بالنسبة والمولد ، ولكنه أجنبىّ القلب والعاطفة . ولذلك اختاره توفيق . أما الباقون ورئيسهم فكلهم عدوّ لمصر خصيم . يمتلىء قلبه بالغيظ والحقد على زعماء ثورتها الذين يحاكمهم .

ألفت المحكمة على هذا الوجه . وجاء دور السيد حسن العقاد ليقف أمامها ليسأل عن كثير من التهم و« الجرائم » التى ارتكبها بمناصرته الثورة العرابية .

يقول عرابى فى مذكراته التى سماها : « كشف الستار عن سر الأسرار فى النهضة المصرية المشهورة بالثورة العرابية » : أن السيد حسن العقاد عندما وقف أمام هذه المحكمة تُلِيَتْ عليه رسائل ضُبِطتْ عنده . يصف فيها توفيق بأنه « أهبل » وأنه لم تعد له ولاية على مصر . فقد خرج على الشرع والقانون بانضمامه للإنجليز ، وأن أوامر توفيق ومنشوراته لم يبق لها أى أعتبار ، بعد خلعه من ممثلى الشعب . فقال حسن العقاد إنه هو الذى كتب هذه الرسائل — مع أنها لم تضبط بخطه — واعترف بأنه وقع قرار عزل الخديوى راضياً مختاراً وسئل عن أموال كثيرة طائلة أنفقها من تجارته الواسعة ، ولم يبيّن فى سجلاته مصادر إنفاقها ؛ فقال إنه أنفقها فى سبيل الثورة العرابية .

وأمام هذه المحكمة ، كما سجل عرابى أيضا ، اعترف الشيخ حسن العدوى بأنه قصد إلى « كفر الدوار » — والحرب دائرة فيها بين الإنجليز وعرابى — ليشجع الوطنيين و يثبت أقدام الجيش المصرى و يبث الدعوة بين جنوده ضد توفيق . وأنه وقف فى المؤتمر الذى عقده العرابيون فأعلن وجوب المقاومة ومواصلة الحرب — على الرغم من إعلان توفيق أن الإنجليز أصدقاؤه وحلفاؤه . وأ ره للمصريين بالكف عن المقاومة — وأنه أرسل إلى عرابى ، والحرب قائمة ، رسائل يشجعه فيها و يؤازره و يدعو له بالنصر على توفيق . وأنه وقع قرار عزل الخديوى راضياً مختاراً .

وأبلغ من هذا فى الدلالة على شجاعة الشيخ حسن العدوى وعظمة نفسه ، أن المحكمة سألته عن فتوى قيل انه أصدرها بعزل توفيق شرعاً . فقال : إنى لم أصدر هذه الفتوى لأن أحدا لم يطلبها منى . ومع ذلك لو قدمت لى هذه المحكمة فتوى بعزل توفيق ، لما ترددت فى توقيعها . وليس فى وسع هذه المحكمة — وأعضاؤها مسلمون — أن تنكر أن الخديوى توفيق مستحق للعزل ، لأنه خرج على الدين وعلى الوطن .

هذان مصريان ، أحدهما تاجر كبير ، وثانيهما عالم كبير ، يضربان هذا المثل الرائع للشرف والرجولة والتحدى ، فإذا أردنا أن ندرك ما فى هذا

الموقف من البطولة ، يجب أن نذكر إلى جانبه الملابسات التى كانت تحيط به و بهما . فهذه ثورة قد فشلت ، وهزم قائدها ورجالها واستسلموا وسلموا أنفسهم ، أو قبض عليهم ، أو فروا واختفوا ، وهؤلاء الإنجليز يستولون على أرض الوطن و يحكمونه قاهرين ظافرين ، بما عند الظافر القاهر من شر وجبروت . وهذا عدوهم توفيق يحكم ويتسلط ، وتتحكم فى قلبه ودمه عواطف الحقد والانتقام والإثم . وهذه جنوده ورجاله ينتشون ظهر الأرض و ينبشون ، باطنها ليبطشوا بمن يقع فى أيديهم من العرابيين ومناصريهم . حتى بلغ عدد من قبض عليهم بهذه التهمة تسعة وعشرين ألفا . وهذه محاكم الإنجليز وتوفيق تؤلف وتؤلب على ما ذكرنا ووصفنا .

فى هذا الجو و بين هذه الملابسات التى هزت كيان كثيرين وزعزعتهم ، كما قال عرابى ، وقف حسن موسى العقاد والشيخ حسن العدوى هذا الموقف ، الذى يبلغ غاية المدى فى تحدى توفيق وشره وحقده وجبروته ، ومن ورائه سطوة الإنجليز . لذلك يبلغ موقفهم هذا غاية المدى فى الشرف والرجولة والشجاعة وعظمة النفس .

عرابي الفلاح

قبل عشر سنوات نشر أمير من أعضاء أسرة محمد على السابقة مذكراته فى صحيفة مصرية ، وكان صاحب هذه المذكرات أكبر أعضاء هذه الأسرة سناً ومكانة.

أخذ صاحب المذكرات يتحدث عن مزايا أبيه توفيق وفضائله وخصاله ويذكر مواهبه وثقافته و « أياديه » على مصر وشعبها . ثم تحدث عن الأخطاء القليلة التى وقع فيها أبوه ، فقال الأمير السابق صاحب المذكرات : إن أكبر الأخطاء التى أرتكبها أبوه الخديوى توفيق أنه أنعم برتبة الباشوية على « الفلاح » عرابى ! ...

يكتب هذا أمير كان يزعم أنه « مصرى » وينشره فى صحيفة مصرية تصدر فى مصر ليقرأها المصريون « رعية » هذا الأمير ورعية أبيه وأسرته ، ينشره على أهل مصر فى منتصف القرن العشرين ، حيث كان العالم — وما زال — يفور ويمور بعواطف القومية والديمقراطيـة والمساواة والتخلص من التمييز والسيطرة والاستعلاء .

يصف الأمير السابق « عرابى » ، بل يعيرّه ويسبه ، بأنه « فلاح » ويرى أكبر أخطاء أبيه أنه « تفضل » فأنعم على هذا « الفلاح » برتبة رفيعة لا يستحق أن ينال شرفها مصرى ، ولا يرى الأمير حرجاً ولا بأساً فى أن يعيرّ المصريين جميعاً ويسبهم بهذا الذى كتب .

وسنرى ، بعد الانتهاء من هذا الحديث ، كيف كان عرابى يعتز بنسبته إلى هؤلاء « الفلاحين » .

فى ضحى اليوم الثالث من ديسمبر سنة ١٨٨٢ عقد ، فى مبنى وزارة الأشغال الحالى بالقاهرة، مجلس المحاكمة والذى تألف لمحاسبة عرابى،ولم يعلن موعد المحاكمة ، فلم يشهده سوى أربعين ، نصفهم من مراسلى الصحف. وكان المقرر أن يتولى إعلان الاتهام أمام المحكمة رئيس قضايا الحكومة : المسيو بوريللى . ولكنه اعتذر عن ذلك لإحساسه بانحراف التحقيق والمحاكمة معاً . فابتعد بنفسه عن أن يشترك فى مهزلة مخزية ، فجلس مكانه قومندان الحامية الإنجليزية ... !

— خصماً وحكماً فى وقت واحد — ثم جيء بعرابى من سجنه... وكان قد وقع وثيقة يعلن فيها عصيانه على توفيق ، وأخرى يتعهد فيها بأن يلزم المكان الذى تحدده الحكومة الإنجليزية لأقامته . وبعد إعلان الاتهام

والوثيقة التى يعترف فيها عرابى بعصيانه ، طلب عرابى أن يتولى محاميه الدفاع عنه . ولـكن المحكمة لم تجب ، ورفعت الجلسة إلى عصر اليوم نفسه. فلما أعيدت نطق رئيسها بالحكم على عرابى : الإعدام . وبعد ذلك أعلن أن توفيق تعطف فأبدل حكم الإعدام بالنفى مدى الحياة ، تم ذلك كله فى عشر دقائق ، ثم رفعت الجلسة .

وأبعد عرابى إلى جزيرة سيلان فبقى فيها نحو عشرين سنة.

وقد ظل اسم عرابى بعد ذلك باقياً مذكوراً فى التاريخ المصرى الحديث مابقى فى مصر شعور بالقومية المصرية أو العربية. وسيظل هكذا على الدوام. وستظل الحركة العرابية أو « هوجة عرابى » كما سماها معاصروه ، باقية مذكورة فى ضمير الشعب المصرى وتاريخه ، حية على لسان أفراده وفى قلوبهم بعد أن تحققت لمصر الحياة الحرة والسيادة التى جاهد عرابى لهما ، ولقى فى سبيلهما ما يلقى المجاهدون الأحرار .

سيظل اسم عرابى مذكوراً فى ضمير الأمة المصرية والعربية كبطل، ومثل للشجاعة والـكفاح والإخلاص . وستظل ثورته رمزاً روحياً لأول حركة قومية قوية خالصة . وأول « تنبّه » عام و إحساس شامل بالقومية المصرية فى العصر الحديث . وأول هبة لتحقيق السيادة المصرية للدم المصرى .

وقد كتب الكاتبون والمؤرخون ، البحوث والتحقيقات عن عرابى البطل وعن ثورته . ولكنى عرفت ، بمصادفة موفقة ، حديثاً عن العظمة النفسية ، التى كان يتميز بها عرابى ، وعن الشعور الراسخ بالعزة الذاتية ، التى كان يحستها لمجرد أنه مصرى وفلاح .

وقد بلغ عرابى من الرفعة والمجد ما بلغ ، وارتفع اسمه وعلا شأنه ، إلى حيث علا وارتفع ، ولكن هذا كله لم يغير من نفسه ولا من شعوره ، واعتزازه وفخاره بأنه مصرى وفلاح ، بل لقد جعل عرابى نسب فخره أنه فلاح تحدّر من أصلاب الفلاحين ، ونشأ مثلهم ومعهم بين المـاء والطين .

قبل عشرين سنة عرفت شيخاً معمراً فى قرية « هرية رزنة » ، قرية عرابى ، على بعد أميال ثلاثة من الزقازيق ، وكان قد جاوز المـائة وتوفاه الله بعد ذلك بقليل .

هذا المعمر : « الشيخ على نجم » كان فى قريته تلك صاحب « كتّاب » تعلم فيه وحفظ القرآنَ صبيةُ هذه القرية وما يجاورها جيلاً بعد جيل ، وكان أبوه من قبله معلماً وصاحب « كتّاب » .

وقد قدّر لى أن أجلس إلى هذا الشيخ المعمّر ، قبل أن يتوفاه الله بقليل ، وأن يحدثنى عن ابن قريتهم : « عرابى » وأنه كان يتعلم القراءة

ويحفظ القرآن فى كتّاب أبيه ، وكان « عرابى » يصغره سناً وإدراكاً ، ويتخلف عنه فى الحفظ . فكان محدثى الشيخ ـ يرحمه الله ـ « عريفاً » عليه ، كما يقولون فى لغة كتّاب القرية لذلك العصر .

وبقيت العلائق بين « العريف » المعلم الشيخ على نجم ، وبين زميله وتلميذه أحمد عرابى ، حتى انتهى هذا لما بلغ من مجد ومنزلة ، وكان من خاتمة الثورة العرابية وخاتمة عرابى ما نعرف . ونفى عرابى إلى جزيرة سيلان ثم أعيد منها بعد عشرين سنة .

قال المعمّر الشيخ ، يرحمه الله :

وقصدت ومعى زميل من شيوخ « هرية رزنة » نهبط مصر لنرى عرابى باشا بعد رجوعه من المنفى ، وكان اليوم يوم جمعة ، وحل علينا وقت صلاتها قريباً من عابدين ، فدخلنا مسجداً نصلى ، فإذا بنا ونحن خروج ننتعل أحذيتنا على باب المسجد ، نرى عربة تقف أمامه وقد صعد إليها رجل كبير ضخم الجثة ، عرفته حين رأيته ، فقلت لصاحبى الشيخ : أليس هذا عرابى . ؟ لقد تغير كثيراً وكأنه لم يعد يبصر . فقال صاحبى بعد صمت : ألا ترى من الخير لنا أن نعود فلا نذهب إلى بيت عرابى ؛ فإنى لا أستطيع أن أراه هكذا فى ختام أيامه ، كسيراً مخذولا مهيضاً ، وهو

موق ذلك أعمى ، ثم يقول رفيقي : وهل تظن أنه يعرفنا بعد كل هذه السنين ، وهذه الأحداث والمحن ، وهذه الغربة الطويلة . ؟ إننا نخجل أنفسنا حين نعرض عليه أو يستأذن لنا منه فلا يذكر أشخاصنا أو أسماءنا ، فهلم بنا نعود ، قال محدثى : ولكنى عارضت صاحبى وشجعته وقلت له : لقد جئنا إلى القاهرة لنزور عرابى ، ولا بد إن شاء الله أن نزوره . وقصدنا إلى بيته فى شارع خيرت ، بعد صلاة الجمعة بساعات .

نلما قدمنا منزل عرابى استقبلنا على بابه بعض الخدم ، واستقبلنا واحد من أبنائه وهو لا يعرفنا . فلما عرّفناه بأنفسنا قال : إن الباشا ليس فى البيت . وترك لنا أن نجلس أمام البيت على « دكة » البواب حتى يعود فيستأذن لنا عليه الخدم ، فجلسنا وقد نظر إلىّ صاحبى كأنما يذكّرنى بما قال ونحن نترك المسجد حين رأينا عرابياً وهمّ بنا صاحبى أن نعود .

وقفنا على هذه الحال إلى حائط البيت فترة ما بين الحيرة والتردد ، وبعد لحظات انتهت إلى الباب ووقفت عربة عرابى ونزل منها يتمهل ، ووقع بصره علينا ، وبعد دقيقة أو دقيقتين ، وقد همت بالتقدم للسلام عليه ، نادانى : ألست أنت « عريقى » الشيخ على نجم . ؟

وسألنى وصاحبى عن خبرنا ، فقصصت عليه كيف جئنا وما قال لنا

خدمه وابنه . وكنا دخلنا معه وأجلسنا إلى جواره . فلما سمع قصتنا تغيّر لون وجهه وظهر عليه الغضب ، ثم وقف ووقفنا . وعاد بعد ذلك إلى أول الحديقة فنادى ابنه الذى استقبلنا وطاب معه جميع من فى البيت من إخوته . ثم وقف ووقفوا جميعاً أمامه صفاً واحداً ، فحدثهم باللغة التركية حديثاً طويلا كان فيه عالى الصوت ظاهر الحدة والغضب ، وهم وقوف أمامه صفاً ورؤوسهم على صدورهم ، مشتبكة أيديهم كأنهم فى صلاة . ثم أنهى حديثه معهم باللغة العربية ، وقد فهمنا عند ذلك سرّ غضبه وما حدّث به أبناءه — وخدمه واقفون — باللغة التركية . وكان ختام حديثه لأبنائه — كأنى أسمعه الآن — يقول مشيراً إلىّ وإلى صاحبى : هذا زميلى فى الـكتّاب ، وهذا عريفى جلست إليه يسمع منى القرآن ، فهو معلمى . وأنا فلاح ابن فلاح تحدّرت من أصلاب الفلاحين فأنا بهم فخور ، فخور بأنى نشأت ولعبت فى الماء والطين معهم . وأنا عرابى باشا ، ولكنى قبل ذلك « فلاح » من قرية « هرية » . وهؤلاء الفلاحون هم أهلى وعشيرتى ومنْبتى وشرفى ، ومنهم دمى ، فمن جاء منهم لا يجلس بالباب .

ثم أمر أولاده فانصرفوا وهم سكوت مطرقون . ودخلنا فجلسنا وجلس معنا ساعات ، يحدثنا عن صبانا وأيام الطفولة ويسألنا عن رفقاء الـكتّاب . وأراد أن يستبقينا ليلتنا لنبيت ، فشكرنا واعتذرنا .

ولما انصرفنا لم يتركنا عرابى حتى خرج معنا خطوات من حجرته ، واستحلفنا أن نعود إليه وأن يرانا .

قال محدثى المعمر الشيخ : ولم يشأ الله أن نزوره ولا أن نراه . ولكننا نحبه كما كان يحبنا .

قلت : يرحمك الله أيها الشيخ كما يرحم الله عرابيًا : البطل الفلاح .

ثائر من القرن الثالث

فى شهر شوال من سنة خمس وخمسين ومائتين ، خرج فى فرات البصرة رجل زعم أنه على بن محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد بن على ابن الحسين بن علىّ بن أبى طالب ؛ وجمع الزّنج[1] الذين كانوا يسكنون السباخ وعبَر دجلة فنزل الدينارى ، وكان قد شخَص من سامرّا سنة تسع وأربعين ومائتين إلى البحرين ، فادّعى بها أنه على بن عبد الله ابن محمد بن الفضل بن الحسن بن عبيدالله بن العباس بن على بن أبى طالب ، ودعا الناس بهَجَر إلى طاعته ، فاتّبعه جماعة كثيرة من أهلها ومن غيرهم . وكان أهل البحرين قد أحلّوه بمحل نبى ، وجبى الخراج ونفّذ فيهم حكمه ، وقاتلوا أصحاب السلطان بسببه .

ذلك هو مبدأ ظهور صاحب الزِّنج كما رواه ابن الأثير فى تاريخه الكامل .

« وما زال يدعو غلمان أهل البصرة ويقبلون إليه للخلاص من الرق

---

(١) الزنج : بفتح الزاى « وتكسر » جيل من السودان ، وهم الزنوج . [القاموس والمصباح] .

والتعب ، فاجتمع عنده منهم خلق كثير فخطبهم ووعدهم أن يقوّدهم ويملكهم الأموال . وحلف لهم الأيمان ألا يغدر بهم ولا يخذلهم » .

فهذا بدء ظهور دعوته فى البصرة وارتفاع صوته وصوتها .

ولعل هذه الثورة التى نحاول أن نلخّص خبرها وخبر صاحبها فى هذا الفصل ، هى أول ثورة فى الإسلام ، قامت على أساس اجتماعى ، ويسميها المؤرخون العرب « فتنة الزنج » .

هى أول ثورة أشعلها فى قلوب الناس ، بل المستضعفين منهم ، شعورهم بالظلم والهوان ، وقسوة المجتمع عليهم قسوة شاذة .

وقد بدأت هذه الثورة — كما تبدأ جميع الثورات — بإثارة الفكر ، والضمير ، والمنفعة : إذ بدأ صاحب دعوتها يحرك فى نفوس أبأس الطبقات وأحقرهم شأنا فى مجتمع ذلك العصر ، إحساسهم بالمذلة والفقر والصغار ، الذى وضعهم فيه مجتمعهم ، ويذكى فى نفوسهم شعور السخط عليه ، وعلى الظلم ، وعلى سادتهم — بل أسيادهم ، فقد كانوا عبيداً — ويضىء فى الوقت نفسه ، قلوبهم بالأمل فى حياة أفضل وأكرم ، ينالون فيها الحرية ، والمال ، والعمل .

جمع صاحب هذه الثورة الزنوج — كما يقول الطبرى — « وقام فيهم

خطيبا ووعدهم أن يقودهم ، ويرأسهم ، ويملكهم الأموال » .

فهذا الثائر يريد أن يجعل من هؤلاء العبيد السود الذين يكسحون الأقذار ويحملونها ويعملون فيها طول يومهم ، ومن العبيد الآخرين الذين كان يشتريهم الناسُ ويبيعونهم ، يريد أن يجعل من هؤلاء وهؤلاء أحراراً يضع نفسه قائداً لهم ورئيسا عليهم ، وأن يملّكهم الأموال بعد أن كانوا سلعة تملك وتهدى وتباع .

وقد قامت ، غير هذه الثورة وقبلها ، ثورات الخوارج ، والقرامطة ، والزّط ، وبابك الخرّمى وغيرها ، ولكن هذه الثورات لم يكن لها أساس اجتماعى ، بل كانت دوافعها عنصرية ، أو سياسية ، أو شخصية ، أو هذه كلها مجتمعة . أما ثورتنا هذه ، ثورة صاحب الزنج ، فقد كانت شيئا آخر فريداً .

كان الزنوج الإفريقيون يقيمون فى مكان قريب من البصرة ، يسمونه « السِّباخ » ، وكان هذا الاسم مشتقا من العمل الذى يقوم به هؤلاء الزنوج ، وهو كسح السباخ والفضلات التى تتخلف فى بيوت أهل البصرة ومرافقهم .

وفى سنة ٢٥٥ هـ ظهر بين هؤلاء العبيد السود — كما رأينا — رجل يرقى

ينسبه إلى الحسين بن على بن أبى طالب ، وهو ، مع هذا النسب الرفيع ، يلقاهم ويتودّد إليهم ، ويشفق بهم ، ويثير فى نفوسهم العزة ، والسخط على حالهم ، ويدبّر لهم ومعهم الأمر ليخرجهم من الرق إلى الحرية ، ومن الجوع والتعب والخوف ، إلى الشبع والراحة والأمن والطمأنينة .

وبدأ هذا الداعية دعوته سراً ، ويقول واحد من أوائل الذين اتّبعوه ، إسمه ريحان : « كنت موكّلاً بغلمان مولاى — أى عبيده — أنقل لهم الدقيق ، فأخذنى أصحابه فساروا بى إليه فسألنى عن الموضع الذى جئت منه ، فأخبرته . وسألنى عن أخبار البصرة وعن الغلمان السود وما يجرى لهم ، فأعلمته » وبعد ذلك يقول إنه دعاه إلى دعوته فقبل ، ثم طلب إليه أن يحتال على من يستطيع من العبيد حتى يجىء بهم إليه ، ووعده بأن يجعله قائداً على من يأتى بهم . ثم استحلفه ألا يخبر أحداً بمكانه وخلّى سبيله .

وبدأت هذه الدعوة تثمر ثمرتها بين أهل السباخ من العبيد فيقبلون على صاحبها ، فيتلقاهم ويحدّثهم ، ويعدهم بأنه سيجعلهم قواداً فى جيشه ، بل جيشهم ، ويملّكهم الأموال ويقسم لهم أنه لن يتركهم ، ولن يغدر بهم . ولن يخذلهم « ولا يدع شيئا من الإحسان إلا أتى به إليهم » .

وبدأ صاحب الزنج يشعر بقوته ، وكثرة أتباعه من العبيد ، وإخلاصهم ، فأخذ يتهيأ لإعلان دعوته ، فلما أعلنها ، فى عيد الفطر من سنة ٢٥٥ هـ كانت إعصاراً مدمراً ، بقى يقض مضجع الخلافة العباسية ، وينقص من أطرافها أربع عشرة سنة وأربعة أشهر ، وعشرة أيام .

استولى صاحب الزنج ، فى سنتين اثنتين هما سنة ٢٥٦ – ٢٥٧ ، على مدن : الأبلة وعبادان ، والأهواز ، والبصرة . ثم على واسط والبطيحة « بين واسط والبصرة » والنعمانية « بين واسط وبغداد على نهر دجلة » وحارب ، من قواد الخلافة العباسية وولاتها ، سعيدا الحاجب ، وابن المدبر ومسيرا المولد ، وموسى ابن بغا ، ومنصور بن جعفر بن دينار – وقد قتل فى حربهم – وأبا الساج ، وأغرتمش التركى ، والموفق طلحة – أخا الخليفة المعتمد – والعباس ، ابن الموفق . وقتل بيده ويد الثائرين من أتباعه ، على بن يزيد العلوى ، صاحب الكوفة ، وشاركت فى حرب هذه الثورة جيوش من الترك والعرب ، والأكراد ، سيرتها دولة الخلافة فكانت تلاقى من جيوش الثائرين كل هول وضراوة وقسوة .

وقد بقى الموفق ، أخو الخليفة المعتمد ، يحارب الزنج وصاحبهم ثلاث سنين . هزم فيها أكثر من مرة . وهم بالهرب أمام طوفانهم .

وفى هذه الحروب الطويلة الطاحنة . قتل من الناس خلق كثير . قدّره بعض المؤرخين بمليون ونصف ، وقدره آخرون بمليونين ونصف . وقتل فى هذه الثورة ، فى يوم واحد ، كما روى المؤرخون ، ثلاثمائة ألف ، وكان ممن قتل فيها أبو الفضل الرياشى النحوى المشهور ، وزيد بن أخزم ، الحافظ المحدث .

ولما ظهر أمر الثورة ، اشترك فيها غير الزنوج من الناس . فنحن نجد من حوادث سنة ٢٦٦ أن العرب أغاروا على ركب الحجاج وذهبوا بما نهبوه إلى صاحب الزنج .

وقد ذكر المؤرخون شيئا ، قد يكون صادقا أو غير صادق ، عن صاحب الزنج وأصله ، وذكروا خروجه على الخلافة ووقائعه وحروبه مع ولاتها وقوادها ، ومن قاتله منهم ، ومن قتِل . ولكنا لا نكاد نجد شيئا عن جوهر دعوته وحقيقتها وأهدافها .

لا نكاد نجد سوى هذه القصة التى لخصتها أول هذا الفصل عن حديثه مع ريحان ، وسوى هذه القصة التى رواها ابن الأثير ، والتى تدل على أن صاحب هذه الثورة كان مؤمنا بدعوته أعمق الإيمان مؤثرا لها على كل عرَض من عروض الحياة ، مؤمنا بحق هؤلاء العبيد فى أن تكون

لهم الحرية ، والكرامة ، وأن يشعرهم لذة العزة والسيادة ، حتى على أسيادهم السابقين .

خلاصة هذه القصة لابن الأثير ، أن الأغنياء لمّا أحسّوا خطر دعوته عليهم ، وأثرها فى نفوس عبيدهم وخدَمهم . وخروج الرقيق من بيوتهم وقصورهم ومزارعهم إليه ، ذهبوا يبذلون له عن كل عبد خمسة دنانير ، ليعيد إلى كل منهم عبده . فأراد أن يذيق هؤلاء الأسياد بأس ما صنعوا بعبيدهم . فبطح الأسياد على الأرض . وأمر جميعَ من عنده من العبيد أن يضربوهم بالسياط ... ! لكل سيد منهم خمسمائة سوط ـ أو «شَطْبة» كما يقول الطبرى ـ بيَد عبده ... ! ثم أطلق سراح السادة ... !

أما صاحب هذه الثورة فقد روى المؤرخون ، كما ذكرنا ، أنه قدم من سامرا إلى البحرين سنة ٢٤٩ هـ فادّعى فيها نسبه العلوى الشريف ، وينكر المؤرخون عليه هذا النسب، ولكن «بروكلمان» لا يستبعده، وكان اسمه عليا بن محمد بن أحمد . ثم يقولون إنه بدأ دعوته فى مدينة هجر فاتّبعه كثير من أهلها ، ومن أهل البحرين وغالوا فيه ، وفتنوا به فتونا شديداً حتى أوشكوا أن يجعلوه نبيا . وقدّموا له أموال الخراج . فلما جاء إلى البصرة كان منه ومن أهل السباخ فيها ما أوجزنا خبره فى هذا الحديث .

ومن الطبيعى أن يفتتن الناس بهذا الثائر فتوناً شديداً ، وأن يستولى على عواطفهم وقلوبهم « حتى أوشكوا أن يجعلوه نبيا » ، فقد ظهر هذا الثائر بنسب شريف يرفعه إلى أقدس اسم عند المسلمين . نسب يصله بعلىّ ابن أبى طالب ، وفاطمه بنت النبى عليه السلام .

وكان آل علىّ وأولادهم ـ لفقرهم وحاجتهم ـ يتزوجون أو يتسرّون الإماء السود لرخص مهورهم وأثمانهم . فكان كثيرون منهم — من العلويين — ينزع لونهم وسحنتهم إلى السواد وسحن أمّهاتهم الزنجيّات ،وكان ثائرنا ، على بن أحمد ، يميل لونه إلى السواد ، فهو أقرب لوناً وسحْنةً إلى هؤلاء العبيد الذين قام لتحريرهم . كما كان ثائرنا لسِناً قوى الحجة خلاب المنطق . لقيه جمع من الحجاج ، بعد استيلائه على البصرة وما جاورها ، فظلّ يحدّثهم عن دعوته وثورته .

وروى الطبرى عن هؤلاء الحجاج إجمال هذا الحديث فقال : « فلما أتيناه ـ أى التقى الحجاّج بعلى بن أحمد ـ أمر فبُسِط له على نشزٍ من الأرض ، وقعد ، وكان فى السفن قوم حجاج أرادوا سلوك طريق البصرة، فناظرهم بقية يومه إلى وقت غروب الشمس . فجعلوا يصدقونه فى جميع قوله وقالوا : [لو كان معنا فضْل نفقة لأقمْنا معك] فردهم إلى سفنهم » .

ومن هذا الوصف وهذا الحديث ، نعرف أن على بن أحمد هذا ، حتى بعد استيلائه على البصرة وما يحيط بها من الأقاليم ، لم يعمد إلى الترف والاستعلاء ، بل التزم البساطة والقَصْد والتواضع . فكان يحدّث القوم وهو جالس على مرتفع من الأرض فرش عليه بساط أو حصير . ومن هنا كانت الملاءمة قائمة قوية بين دعوته لتحرير العبيد والمستضعفين ، و بين أعماله ومظهره وتصرفاته . ومن هذا الحديث نعرف أنه كان يحدث القوم عن دعوته ليؤيدوها و يدخلوا فيها وينصروها . وقد تأثر الحجاج بمنطقه وخلابته حتى أصغوا إليه أكثر يومهم إلى غروب الشمس وأنهم أظهروا اقتناعهم بهذه الدعوة وهذا المنطق حتى قالوا : لو أن معنا مالا نستغنى عنه لبذَلناه لك . وكان علىّ يستطيع ، وهو صاحب الحول والقوة على البصرة وما جاورها ، أن يأخذهم بالقهر والعنف . وأن يفتش سفنهم وأحمالهم وثيابهم ، وأن يحتجزهم و يضمهم إليه بالقوة إذا شاء . ولكنه آثر الحكمة والكياسة فصدقهم فى دعواهم العجز والحاجة ، وتركهم أحراراً يسيرون إلى حيث يريدون ،ولاشك فى أنهم كانوا بعد ذلك دعاة له معجبين بشخصه و إخلاصه ودعوته .

وهناك قصة أخرى رواها المؤرخون ، تدل على سماحته وكياسته وهى،

فى نفس الوقت ، تدل على إخلاصه لفكرته وعمق إيمانه بالدعوة التى ثار من أجلها .

تقول القصة : إن على بن أحمد جمع الأسياد الذين يملكون العبيد وهدّدهم بالموت جزاء ما يلقى منهم عبيدهم من سوء المعاملة والقسوة ، فقال : « قد أردت ضرب أعناقكم لما كنتم تأتون إلى هؤلاء الغلمان ، الذين استضعفتموهم وقهرتموهم وفعلتم بهم ما حرّم الله عليكم أن تفعلوه بهم. وجملتم عليهم ما لا يطيقون ، فكلّمنى أصحابى فيكم فرأيت إطلاقكم » .

وكان علىّ يستطيع أن يقتل هؤلاء « الأسياد » ولكنه كان يريد التقويم والإرهاب والتخويف .

وهذا الشريف العلوى الذى يثور ويقود الثورة ويشعل الحرب غضباً لما يلقى العبيد من القسوة والأذى . يكتب على رايته آية من كتاب الله تدعو لأن يبيع المؤمن نفسه فى سبيل الله وفى سبيل الحق ، تلك الآية هى « إنّ اللهَ اشترَى من المؤمنين أنفسَهم وأموالهم بأنّ لهم الجنة » . ولعل ذلك كان أيضاً من أسباب نصرته وافتتان الناس به .

ولكنه مع كل ذلك ومع انتصاره ، كما ذكرنا ، على دولة الخلافة سنوات عدة ، واستيلائه على رقعة فسيحة من أرضها — هزم فى النهاية .

ولم تقم بعده فى العالم كله ، ثورة للعبيد أو من أجلهم ، إلا بعد ألف سنة .

ولم تخل دعوة على بن أحمد ، كما يصورها ابن الأثير ، من شعوذة ودجل فقد زعم لنفسه الكرامات أو المعجزات حتى قال : إن غمامة أظلته وخرج منها صوت يتحدث إليه . وهى نغمة تعرفها تلك العصور وما يماثلها فى الجهالة ، يقول على عن بدء دعوته : « إنى فكرت فى الموضع الذى أقصده ، حيث نبت بى البلاد ، فأظلتنى غمامة وخوطبت منها فقيل لى : اقصد البصرة » . وهو فى ذلك يزعم لنفسه منزلة النبوة ويتملق أهل البصرة .

وهنا يجب أن نلاحظ أن ابن الأثير والطبرى وغيرهما من المؤرخين يكتبون — وهم يسجلون سيرة على بن أحمد — عن ثائر خارج على خليفة النبى و إمام المسلمين ، وأنه قد هزم آخر الأمر .

والناس من يلق خيراً قائلون له ما يشتهى ، ولأم المخطىء الهبَل

وقد ملأ صاحب الزنج هذا قلوب أنصاره وأتباعه بالسخط والثورة والحقد ، وزادت الحرب التى قامت بينهم و بين جند الخليفة ما فى نفسه ونفوسهم من هذا السخط والحقد . فلم تخلُ ثورتهم وحربهم من العنف والقسوة الفاجرة .

ففى شوال من سنة سبع وخمسين ومائتين ، اجتمع الأعراب من البحرين ، بإمرة محمد بن يزيد الدارمىّ ، وتجمّع عليهم كثيرون من مشاهم أتباع صاحب الزنج ،وأحاطوا بالبصرة من أطرافها فدخلوها وقت صلاة الجمعة فى اليوم السابع عشر من شوال . وأباح صاحب الزنج لزنوجه البصرةَ يوم الجمعة وليلة السبت ويوم السبت يفعلون بها وبأهلها ما يشاؤون ... ! حتى حرق المسجد ، وأحرقت البصرة فى عدة مواضع ، واتسع الحريق من الجبل إلى الجبل .

وقدّمت الخدعة إلى أهل البصرة بأن من دخل دار فلان فهو آمن ؛ فجاء أهل البصرة قاطبة إلى دار الأمان ثم غُدر بهم وقتلوا ، فكان السيف يعمل فيهم وأصواتُهم مرتفعةٌ بالشهادة ، فقتِل ذلك الجمع كله ولم يسْلم إلا النادر منهم . وعظُم الخطب بالقتل والتحريق والنهب ؛ فمن كان من أهل اليسار أخذوا ماله وقتلوه ، ومن كان فقيراً قتلوه لوقته . وبقوا كذلك عدة أيام .

هكذا يقول المؤرخون .

***

ابن الرومى يصور حريق البصرة :

وكان يعيش فى هذه الفترة من الزمن ويشهد هذه الأحداث المثيرة ،

شاعر من أعظم شعراء العربية وأبرعهم وأصدقهم إحساسا، هو ابن الرومى ، وقد وصف دخول الزنج مدينة البصرة — وقت صلاة الجمعة — فى قصيدة من عيون الشعر وعجائبه ،وضوحَ بيان ، وقوّة تصوير ، وإبداع خيال ، وصدق عاطفة . وهى من بدائع الشعر العربى كله .

وليس موضوع هذا الكتاب الأدب والشعر ، ولكنى أبيح لنفسى أن أسجل قطعة كبيرة من قصيدة ابن الرومى هذه . لأننا نستدل منها على شئ كثير فى ثورة العبيد هذه وعما بلغت من العنف والشدة . ونذكر ، قبل أن نتلو قصيدة ابن الرومى ، أن شأنه فى موقفه من هذه الثورة ، شأن الطبرى وابن الأثير ، وغيرهما ممن أرّخ للثورة وصاحبها . وقد كان هؤلاء جميعا يمثّلون وجهة النظر « الرسمية » وينافحون عن الخليفة ، وعن المجتمع الذى يعيشون فيه :

بدأ ابن الرومى قصيدته بهذه البداية الجازعة :

ذاد عن مقلتى لذيذَ المنـــام	شغْلُها عنه بالدموع السِّجام
أىَّ نوم من بعد ما حلَّ بالبصـ	ـرة ما حل من هنات عظام ؟
أى نوم من بعد ما انتهك الزنـ	ـج ، جهاراً ، محارم الإسلام ؟

إن هــذا من الأمور لأمر   كاد ألاّ يقــوم فى الأوهام

ومن هذه البداية يشعر القارىء بما يريد ابن الرومى أن يوحى إليه من الجزع والتهويل والتقديم لأمر عظيم « انتهكت به محارم الإسلام » حتى أن هذا الأمر العظيم يكاد ألا تصدقه الأوهام .

ثم ينتقل بعد هذا الإيحاء وإثارة الغضب والسخط فى قلب سامعه وقارئه إلى وصف ما يريد فيقول مجملاً فى بيت واحد :

أقْدم الخائن اللعين عليها   — وعلى الله — أيمّا إقدام

ثم يعود بعد هذا الإجمال البارع إلى مافى نفسه من الحزن واللهفة على ما أقدم صاحب الزنج من أمر فيقول هذه الأبيات :

لهف نفسى عليكِ أيتها البصـ   ـرة لهفاً كمثل لهْب الضرام

لهف نفسى عليك يا معدن الخيـ   ـرات لهفاً يعضّنى إبهــامى

لهف نفسى عليك يا قبّة الإسـ   ـلام لهفاً يطول منه غرامى

لهف نفسى عليك يافرْضة البلـ   ـدان لهفاً يبقى على الأعوام

لهف نفسى لجمعك المتفـانى   لهف نفسى لعزِّك المستـضام

بهذه اللهفات المتواليات قد هيّأ ابن الرومى قارئه لأن يقرأ وصفه القادم

لما حلّ بالبصرة ، وقد امتلأ قلبه بالغيظ والغضب ، الذى أوحاه إلينا فى مطلع قصيدته . ثم يقول :

بينما أهلُها بأحسن حالٍ   إذْ رماهم عبيدُهم باصطلام
دخلوها كأنهم قِطَع الليـ   ـل إذا راح مدلهِمّ الظلام

أىَّ هولٍ رأوا به أى هول   حقّ منه يشيب رأسُ الغلام
إذ رموهم بنارهم من يمين   وشمال ، وخلفِهم ، وأمام
كم أغصّوا من شاربٍ بشراب   كم أغصّوا من طاعمٍ بطعام
كم ضنينٍ بنفسه رام منجًى   فتلقّوا جبينَه بالحسام
كم أخٍ قد رأى أخاه صريعاً   ترِب الخدّ بين صرعى كرام
كم أبٍ قد رأى عزيزَ بنيه   وهو يُعلى بصارمٍ صمصام
كم مفدّى فى أهله أسلموه   حين لم يحمِه ، هنالك ، حامى
كم رضيع ، هناك ، قد فطموه   بشبا السيف ، قبل حينِ الفِطام
كم فتاة — بخاتم الله — بكرٍ   فضحوها جهراً بغير اكتتام
كم فتاة مصونةٍ قد سبوْها   بارزاً وجهُها بغير لِثام
من رآهن فى المساق سبايا   داميات الوجوه للأقدام
من رآهن فى المقاسم — وسط الزنـ   ـج — يقسَمْن بينهم بالسهام
من رآهن يتّخَذْن إماءً   بعد مِلك الإماء والخدّام

هذه القطعة من قصيدة ابن الرومى قد رأى فيها القارىء كيف دخل الزنج البصرة وأهلُها على أحسن حال ، فكان جيشُهم كأنه قطع الليل . وكيف أخذتهم نار الزنج من خلفهم وأمامهم ومن يمين وشمال . ثم هو يقدم لنا هذه الصورة الشعرية الرائعة كأنها الرسوم أو التماثيل فى قوة تصويرها . فهذا شارب أو طاعم حين هجم عليه الزنج غصّ بشرابه وطعامه ، وهذا هارب ضنين بنفسه قد جَبَهَتْه سيوفُهم وتلقّت جبينه ، وهذا أخ يرى أخاه صريعاً قد عفّر التراب خده بين كرام غيره ، معفّرة خدودهم . ثم يقدم إلينا صورة من تلكم الفتيات الأبكار على خاتم الله قد فضحهم الزنج وفضّوهنّ جهرة بغير اكتتام . ثم ساقوهن إلى السَّبْى يفرقونهن بينهم ويقتسمونهنّ مماليك وكنّ من قبل يملكن الإماء والخدام .

ثم يعود ، بعد إبراز هذه الصورة القوية من السفك والقتل والعدوان ، إلى شعوره النفسى يوحى به فيقول :

ما تذكرت ما أتى الزنج إلا   أضرَم القلبَ أيما إضرام
ما تذكرت ما أتى الزنج إلا   أوجعتنى مرارة الإرغام

ثم يعرج إلى ذكر صور مجملة بعض الإجمال من بيع السبايا وتخريب البيوت البارة كانت مأوى الضعاف والأيتام . ودخول القصور العامرة

كانت من قبل صعبة المرام . ثم يقدم لنا بعد ذلك صورة كلها حياة وكلها حركة وكلها دقة ووضوح ، وهى قوية غاية القوة عن مدينة البصرة وكيف كان زحام الخلق فيها وعمار أسواقها ، وتلك الفلك التى تسير منها وإليها بالتجارة والناس ، وتلك القصور ذوات الإحكام من بنيانها ، وكيف استحال هذا كله — بفتنة الزنج — إلى خراب وصمت لا يرىٰ فيه غير أيدٍ وأرجل مقطوعة ورؤوس مهشمة ووجوه دامية بين الخرائب تسفى عليها الريح :

عرّجا صاحبيّ بالبصرة الزّهــــراء تعريج مدنَفٍ ذى سقام
فاسألاها — ولا جواب لديها لسؤال — ومن لها بكلام ...؟
أين ضوضاء ذلك الخلق فيها ؟ أين ذاك البنيان ذو الإحكام ؟
بدّلت تلـكم القصور تلالاً من رماد ومن تراب ركام
سلط البثق[1] والحريق عليها فتداعت أركانُها بانهـــدام
وخلتْ من حُلولها ، فهى قفْر لا ترىٰ العينُ بين تلك الآكام
غير أيدٍ وأرجــل بائنات نبِذَت ، بينهن أفلاقُ هام

(١) فى القاموس [بثق النهر بثقاً وبثقاً وتبثاقاً كسر شطه بنبثق الماء] . ولعل صاحب الزنج كان قد كسر «شط العرب» الذى تقع عليه البصرة ، فتصدق صورة ابن الرومى عن حصارها بالماء والنار .

ووجوهٍ قد رمّلتها دماء بأبى تلكم الوجوه الدوامى
وطِئَتْ بالهوان والذل قسرا بعد طول التبجيل والإعظام
فتراها تَسْفى الرياحُ عليها جاريات بِهَبْوَةٍ وقَتام
خاشعات كأنها باكيات باديات الثغور، لا لابتسام...!

ولا شك فى أن القارىء يشعر بتلك القدرة الفائقة التى صور بها ابن الرومى ذلك المشهد ، مشهد خرائب البصرة وقصورها التى أضحت تلالا ، ومشهد تلك الأيدى والأرجل مبعثرة فيها قد نبذت بينهن أفلاق هام ، ومشهد تلك الهام ملقاةً خاشعة باكيةً قد بدا منها الثغر و برزَت النواجذ ولكن لا لتبتسم ... !

ثم ينتقل ابن الرومى بعد ذلك إلى ذكر مسجد البصرة وما حلّ به فيقول مخاطباً صاحبيه أيضاً :

بل أَلِمّا بساحةِ المسجد الجا مع إنْ كنتما ذوى إلمام
فاسألاه — ولا جواب لديه — أين عبّاده الطوالُ القيام ... ؟
أين عمّاره الألى عمّروه دهرَهم فى تلاوة وصيام
أين فتيانه الحسانُ وجوهاً ؟ أين أشياخه أولو الأحلام

إلى هذه الغاية يكون ابن الرومى قد أبرز تلك الصورة البارعة القوية

الصادقة عن وصف ما حلّ بالبصرة وأهلها على يد الزنج ، فهو ينتقل بعد ذلك الوصف إلى تهييج الناس وتحريضهم و إثارة نفوسهم على صاحب الزنج وزنوجه حتى يثأروا منه لأنفسهم وأهليهم . وهنا تبرز الغاية التي قصد إليها ابن الرومى ، ونعتقد أنه تعمّدها حين بدأ قصيدته بتلك البداية ...
وقد أشرنا إلى ما تشعِر به من الرغبة فى التحريض والإثارة ، حين ذكر ابن الرومى « محارم الإسلام » ، وحين قال بعد ذلك بيتاً قصدْنا أن نسْقِطه من موضعه لنذكره الآن وهو :

وتسمّى – بغير حقّ – إماماً　　　لا هدىٰ الله سعيَه من إمام

وقد ذكر هذا البيت بعد ذلك الذى يقول فيه إن الخائن اللعين صاحب الزنج قد أقدم عليها وعلى الله .

كل هذه الإيحاءات بالهياج والثأر يجعلها ابن الرومى دعوة صريحة فى هذه القطعة التى ينتقل إليها بعد ذكر المسجد الجامع وعبّاده وفتيانه وشيوخه أولى الأحلام .

أىّ خطبٍ وأى رزءٍ جليلٍ　　　نالَنا فى أولئك الأعـــــام
كم خذلْنا من ناسك ذى اجتهاد　　　وفقيهٍ فى دينه عـــــــلاّم
واندامى على التخلف عنهم !　　　وقليلٌ عنهم غنـــاءُ ندامى

واحيائى منهم ـ إذا ما التقينا   وهمُ ـ عند حاكم الحكّام
أىّ عذرٍ لنا ؟ وأىّ جواب ؟   حين ندعىْ على رءوس الأنام:
يا عبادى ! أما غضبتمْ لوجهى   ذى الجلال العظيم والإكرام
أخذلتم إخوانكم وقعدتم   عنهمُ ـ ويحكم ـ قعود اللئام ؟
كيف لم تعطفوا على أخوَات   فى حِبالِ العبيد من آل حام ؟[1]
لم تغاروا لِعِترَتى ، فتركتم   حرُماتي لمن أحلّ حرامى
إنّ من لم يغِر على حرُماتى   غيرُ كفء لقاصرات الخيام
كيف ترضى الحوراء بالمرء بعلاً   وهو ـ من دون حرمةٍ ـ لا يحامى

ثم يقدم لنا ابن الرومى بعد هذا التحريض القوى هذه الصورة البارعة عن خصومةٍ تخيّل أنها واقعة بينه و بين النبى عليه السلام عن هؤلاء الشيوخ والفتيان وكيف لم يثأر لهم :

وا حَيائى من النبىّ إذا ما   لامَنى فيهمُ أشدّ الملام !
وانقطاعى إذا همُ خاصمونى   وتولىّ النبىّ عنهم خصامى !
مثّلوا قوله لكم ـ أيها النا   س ـ إذا لامَكم مع اللوّام
« أمّتى ! أين كنتمُ إذ دعتكم   حرّة من كرائم الأقوام ... ؟

(١) تبدو فى هذا البيت ، وفى بعض الأبيات السابقة واللاحقة أيضاً ، عنصريّة الثورة . « وأبناء حام » هم العبيد . وابن الرومى يدافع عن العنصر الآخر .

صرَخت . يامحمداه ... ! فهلاَّ قام فيها رعاةُ حقّى مقامى ..!
لم أجبْها ، إذ كنت ميتاً ، فلولا كان حيٌّ أجابَها عن عظامى! »

وأريد هنا أن أشير إلى براعة ابن الرومى إذ انتقل من خطاب نفسه فى الأبيات الأوَل إلى خطاب من يحرّضهم حين بدأ يصف خصومة النبى عن قتلى الزنج فقال : « مثّلوا قوله لكم أيها الناس » .

ثم يندرج ابن الرومى بعد هذه الإثارة وإهاجة النفوس للدعوة الصريحة إلى الثأر من صاحب الزنج فى هذه القطعة التى هى ختام قصيدته ، والتى نكتفى منها بهذه الأبيات :

إنفِروا ـ أيها الكرام ـ خفافاً وثقالاً إلى العبيد الطغام
أبرَموا أمرهم وأنتم نيام ، سوْءةً سوْءةً لنوم النيّام
صدّقوا الظنَّ إخوةً أمّلوكم ورجَوْكم لنوبةِ الأيام
أدركوا ثأرهم فذاك لديهم مثل ردِّ الأرواح فى الأجسام
لم تقِرّوا العيون منهم بنصرٍ وأقِرّوا عيونَهم بانتقام
أنقذوا سبْيَهم ـ وقَلَّ لهم ذا ك ـ حِفاظاً ورعيةً للذمام
عارُهم لازمٌ لكم ، أيها النا س ، لأن الأديان كالأرحام
لا تُطيلوا المقام عن جنة الخلـ د فأنتم فى غير دار مقام

فاشتروا الباقيات بالعرَض الأد نى ، و بيعوا انقطاعه بالدوام

هكذا ينتهى ابن الرومى من قصيدته فى رثاء البصرة وفيما أصابها وأهلها من صاحب الزنج وفتنة الزنج وتحريض الناس على الثأر منه ومنهم.

وأعتقد أن القارىء يجد أنى لم أكن مغالياً حين قلت عن هذه القصيدة من شعر ابن الرومى إنها قصيدة عجيبة من غرائب الشعر العربى ، وضوحَ بيان ، وقوة تصوير ، وإعجاب خيال ، وصدق عاطفة ، وأنها من بدائع الشعر العربى كله .

وأزيد على ذلك أن ابن الرومى كان فى تحريضه الناس وتهييجه لهم ، ماكراً خبيثاً وقوياً عارماً شديد التأثير ، يكاد شعره فى ذلك يدفعنا نحن الآن ـ بعد أحد عشر قرناً ـ إلى الثورة والهياج .

بطل شهيد مجهول

قصة مؤامرة مخجلة ، دنيئة ، ذهب ضحيتها بطل شجاع من أبناء وطننا الذى كافح وجاهد وتعذب وشقى . أقدم على هذه المؤامرة ونسج خيوطها وقام على تنفيذها « جنرال » إنجليزى له فى تاريخ الاستعمار البريطانى صفحات وصفحات . وله فى تاريخ وطننا العربى ذكرٌ ومقام ، لما قام به فى وطننا هذا وفى أفريقيا ، من خدمات للنفوذ البريطانى ، كان يتقاضى عنها ــ عن خدماته هذه للاستعمار الإنجليزى ــ أموالا سخية من أموال وطننا الشقىّ هذا .

وفى قصة هذه المؤامرة ، كما سنرى ، أكثر من عبرة .

* * *

فى سنة ١٨٧٤ قدِم إلى مصر البرنس أوف ويلز ، ولىّ عهد انجلترا ، فى طريقه إلى الهند ، أثمن درّة « كانت » فى تاج الامبراطورية البريطانية يوم ذاك .

وذهب قنصل انجلترا العام ، قبل مرور الزائر بعشرين يوما ، فقابل الخديوى إسماعيل وأبلغه نبأ القدوم . فكتب إسماعيل « إرادة » سنية

إلى ناظر الخارجية ذى الفقار باشا يبلغه أن « حضرة البرنس ولى عهد صاحبة الحشمة ملكة انجلترا سيحضر إلى جنابنا بعد عشرين يوما » ثم يأمر الخديوى بانتخاب « زورق بحرى بأربعة وعشرين مقدافا من القوارب الملكية المذهبة ، وإعادة تذهيبه وفرشه ، وإعداد العمال وتمرينهم كل يوم على استعمال المقاذيف للذهاب للسفينة والعودة منها . والتقرب إلى الساحل بكل مهارة » . ويأمر بأن تطلق المدافع إحدى وعشرين قذيفة فى جميع الطوابى الواقعة على ساحل الإسكندرية ، من المكس إلى رأس التين . عند دخول ولى عهد صاحبة الحشمة إلى مياه المدينة . ويأمر بإعداد القصور الملكية وتجهيزها « بأطقم » المائدة الفاخرة . والعربات الضخمة المذهبة لركوب سموه إليها . ويذكر أسماء من اختارهم لشرف استقباله « لابسين الحلل الرسمية برفقة القنصل چنرال » الإنجليزى .

وقدم البرنس أوف ويلز فى موعده . وقابله الخديوى إسماعيل . وجرى بينهما حديث ذكر فيه ولى عهد انجلترا اسم الكولونيل «غوردون» وأثنى عليه ثناء عظيما ، وأشار على إسماعيل باختياره حكمدارا لمديرية خط الاستواء ، فى مكان السير صمويل بيكر باشا . وبادر إسماعيل بتلبية هذه الإشارة . فأصدر أمرا بتعيين الكولونيل غوردون حكمدارا لمديرية خط الاستواء فى ١٩ من فبراير سنة ١٨٧٤ م .

وقدم غوردون الإنجليزى من انجلترا ليحكم ، باسم مصر المستقلة إذاك ، إقليما مصريا هو مديرية خط الاستواء . وكان جيش مصر الباسل المكوّن من الفلاحين « أصحاب الجلابيب الزرقاء » ينتقل إذ ذاك من نصر إلى نصر ، فى قلب أفريقيا ، ويعلو ، مع انتصاراته ، اسم مصر ، وتسمو مكانتها ، وتنتشر ثقافتها وروحها . وكانت قبائل أفريقيا ، وسلاطينها ترحب بجيش مصر ، وتبادر بالاعتراف بالسيادة المصرية عليها ، وتطلب من مصر أن تعينها على النهوض ، وتنظيم إدارتها وتعليمها[1] .

وكانت إحدى الوحدات العسكرية المصرية قد وصلت ، فى سنة ١٨٧٢ إلى زنجبار ، عن طريق يوغندا . فأظهر سكان البلاد ترحيبا كبيرا بها . وقابل سلطان زنجبار القائد المصرى ، مرحبا مستبشرا . ثم طلب إليه أن يعمل على وضع بلاده تحت الحماية المصرية ، وأن يعقد معه معاهدة بذلك . يرفعها إلى حكومة إسماعيل لتقرّها . وعقد القائد المصرى معاهدة مع السلطان ثم أناب عنه ضابطا مصريا فى زنجبار ، وعاد إلى خط الاستواء ، ومعه تلك المعاهدة فقدّمها الى قائده غوردون ليرفعها إلى حكومة الخديو .

---

(١) كان نفوذ مصر ، بل كانت سيادتها الفعلية ، فى ذلك الوقت تمتد إلى أوغندة والكونغو ، وكانت « كاتنجا » إحدى الأقاليم الغنية الهامة فى الكونغو إقليما مصرياً . ولكن دسائس الاستعمار وتهاون حكام مصر إذ ذاك واستهتارهم وغفلتهم أضاع ذلك كله . بعد أن بذلت فيه دماء مصرية طاهرة زكية غالية .

ولكن غوردون لم يرضه ذلك ، بل أسخطه وأثار حفيظته وحقده أن ترفع راية مصر على جزيرة هامة فى أفريقيا ، يريد هو أن يضمها إلى بلاد الامبراطورية التى كانت الشمس لا تغرب عنها . فأسرّ فى نفسه أمرا يفسد ما أبرمه القائد المصرى مع سلطان زنجبار .

بدأ غوردون بالقائد المصرى فدبر له مكيدة قاتلة تخلّص بها منه . أرسله فى مهمة لم يرجع منها ، وزعم أنه قتل فيها . ثم أرسل إلى إسماعيل كتاباً زعم فيه أن سلطان زنجبار يقاوم نفوذ مصر ، ويعرقل جهودها . وأنه يتحدّى سلطة الخديو فيأسر التجار المصريين الذين يدخلون بلاده . وأنه — أى غوردون — أرسل سريّة من الجند لتعرف مصير الأسرى من هؤلاء التجار فحاربهم سلطان زنجبار وحصرهم فى رقعة من بلاده . حتى أشرفوا على الهلاك . ثم اقترح غوردون على الخديو أن يرسل إليه هدية يرفعها إلى السلطان لعله يفكّ أسر الجند والتجار .

و بادر إسماعيل فأرسل إلى غوردون هدية ثمينة ، ومعها كتاب منه ليرفعهما إلى سلطان زنجبار ، باسم خديو مصر ، حتى يطلق سراح الأسرى من جنده ورعيّته . فلما وصلت الهدية والكتاب إلى غوردون ، حجز الكتاب عنده ، كما حجز المعاهدة من قبل ، وأرسل الهدية مع سائح

إنجليزى اسمه لوكس . وأرفق بالهدية كتاباً منه يحذره فيه من وضع بلاده تحت حماية مصر .

وقدّم السائح الإنجليزى هدية إسماعيل إلى السلطان ، على أنها من غوردون ، ومعها كتابه . فعدل السلطان عن محالفة مصر .

ولكى تتمّ خدعة غوردون لإسماعيل ، احتار غوردون سرية مصرية وأمرها بالعودة إلى مصر ، ليوهم إسماعيل أنها هى السرية التى أسرّها سلطان زنجبار ، وأنقذها هو بحيلته وإخلاصه ودهائه .

وبعد أن أفسد غوردون ما فعله القائد المصرى ، أصبح لا يختار مصريا لأىّ عمل فى مديرية خط الاستواء . بل يكل كل عمل فيها لغير مصرى .

وقد أورد إسماعيل سرْ هنك باشا فى كتابه : « حقائق الأخبار عن دول البحار » تفاصيل المعاهدة التى عقدها القائد المصرى مع سلطان زنجبار وسجّل بنودها ، وهى تجعل جزيرة زنجبار تحت الوصاية المصرية . وتجعل لمصر الإشراف على الجيش والسياسة الخارجية لها . وتكل إلى مصر أمور التعليم والإصلاح فى داخل الجزيرة . وتدل بنودها على مقدرة سياسية

فائقة . كان يتصف بها القائد المصرى ، الذى لا نعرف اسمه . وإن عرفنا وطنيته ، و إخلاصه ، وتضحيته ، وعبقريته السياسية .

وهناك حقيقة يجب أن نسجلها ونحن نفصّل أمر هذه المؤامرة الاستعمارية ، بل هذه المؤامرة المخجلة الدنيئة . هذه الحقيقة هى أن شعب مصر ، ممثّلا فى صحافته ، لم يكن غافلا عن هذه الدسائس والمؤامرات . ولو أن حكامه كانوا غافلين عنها مخدوعين مستهترين .

فقد ذكر سرهنك باشا أن كتابا نشرته جريدة « الأهرام » وطبع فى مطابعها تضمّن قصة هذه المؤامرة . ولم يذكَر على الكتاب اسم مؤلفه ولا تاريخ طبعه . ومن ثمّ نستطيع القول بأن هذا الكتاب صدر عن جريدة « الأهرام » . ما دام لم يذكر عليه اسم المؤلف ، فهو فى هذه الحالة من تأليف أحد أصحابها ، أو محرريها ، وصدر عن مطابعها .

ويبدو من سياق الحديث الذى فصل به سرهنك باشا ، أو فصلت به « الأهرام » حقيقة الأمر فى هذه المؤامرة ، يبدو أن المؤامرة وقعت قبل الاحتلال الإنجليزى بنحو سبع سنوات ، فإذا كانت « الأهرام » نشرتها قبل الاحتلال ، فهى بذلك أدّت واجب الصحافة الأمينة فى التنبيه لما كان

يحيط بالوطن من مؤامرات ودسائس ، وإذا كانت نشرتها بعد الاحتلال فقد أدت هذا الواجب ، وزادت عليه إغضاب سلطات الاحتلال وخديو مصر الذى استدعاها لحمايته ، وفضحت سياسة هذا الاحتلال وهو فى أوج جبروته و بطشه ، لم تخش من ذلك شيئا .

في القرن الثامن عشر

نالت مصر استقلالها

ووحدت البلاد العربية

من الأغلاط التاريخية الشائعة ، بل الراسخة ، أن مصر لم تنل استقلالها إلا في أوائل القرن التاسع عشر ، على يد محمد على . وأنه أول من استقل بحكم مصر ، في العصر الحديث ، وأول من نزع عنها رداء التبعية للدولة العثمانية ، وحقق لها ، بذلك ، كيانا دولياً مستقلا عن « دولة الخلافة » . كنا نجد ذلك في كتبنا التي تسجل تاريخنا ، وندرسه في مدارسنا ومعاهدنا وجامعاتنا . وكان الملَق لمحمد على وأسرته هو السبب في هذا الخطأ ، بل التزييف ، في تاريخ مصر وأحداثها وكرامتها . وقد آن لهذا الزيف الباطل أن ينقشع ، وأن نعرف تاريخ وطننا الصحيح ونعرّف به شبابنا خاصة . فقد حققت مصر استقلالها التام عن دولة الخلافة ، وعن كل تبعية أخرى ، قبل أن يتولى محمد على حكمها بأكثر من أربعين سنة . وكان ذلك على يد « على بك الكبير » . ولولا خيانة مملوكه « محمد بك أبو الذهب » لما فقدت مصر استقلالها هذا . ولم تحقق مصر استقلالها هذا فقط ، بل وحّدت البلاد العربية ، وجعلت منها « وطناً عربياً » واحداً كبيرا .

وربّ قائل يقول : ـ إن على بك لم يكن مصريا ، كغيره من

المماليك . ولكنا نقول إن المماليك ، فى ذلك العهد ، كانوا يعتبرون أنفسهم مصريين ، ليس لهم وطن سوى مصر ، التى تربوا فيها أطفالا ، ونشأوا رجالاً ، ثم ماتوا ودفنوا فى ثراها كهولاً أو شيوخاً ، أو شباباً .

وكان المصريون يرون فى المماليك هذا الرأى أيضا . والجبرتى ، مؤرخ القومية المصرية ، يسمى المماليك على الدوام « الأمراء المصرية » ، ويراهم مصريين .

فنحن ، عند ذلك ، نستطيع أن نقول إن على بك الكبير ، كان أقرب إلى مصر وأهلها من محمد على ، الذى نعرف وطنه ، وكيف قدم مصر ، واستقر بها ، ثم استولى ، بالخديعة والمكر والغيلة ، على الحكم فيها .

على أن على بك الكبير ، كما نرى بعد قليل ، كان ، إلى حد بعيد ، خيراً من محمد على فى سيرته الخاصة ، وفى شئون الحكم ، ورعاية أمور الناس ، والحرص على خيرهم .

* * *

كان الغلام على القازدُغْلى — نسبة إلى زعيم سيده مصطفى كتْخدا القازدغلى — من مماليك إبراهيم كتخدا . فلما بلغ طور الشباب بدت عليه بوادر الشجاعة ، والطموح ، وقوة الشخصية . فلما مات سيده تولى الإمارة بعده سنة ١١٦٨ (١٧٥٤ م) . ثم تولى « شيخ البلد » أى حاكم مصر

الحقيقى فى سنة ١١٧٧ (١٧٦٣ م) ولم يصل على بك إلى مشيخة البلد ، إلا بعد حروب ومنازعات طويلة مع خصومه ومنافسيه . دامت نحو عشر سنوات .

ونجد فى تاريخ مصر لهذه الفترة أسماء : على بُلوقبُطان ، أى : « مبيد اللصوص » وعلى القازْدُغْلى وعلى بك الكبير . وهى كلها لشخص واحد هو هذا الذى نتحدث عنه[1] وفى فترة من شبابه كان يسمى : «جِنّ على» عندما حارب مع زعيمه إبراهيم بك جماعة من الأعراب فى الحجاز وهزِم المماليك ولم يصمد للحرب منهم سوى على بك . واستطاع أن يفرق العرب فسمّىَ « بالجن » .

وكان جند الإنكشارية من أكبر القوى التى تعتمد عليها الدولة العثمانية فى السيطرة على مصر، فكسر شوكتهم، وأكثر من شراء المماليك ، حتى بلغ عدد مماليكه ستة آلاف ، ثم وجه همته إلى تحصين الحدود البحرية . فجدد قلاع الإسكندرية ودمياط وحصّنها ، وعزز حاميتها .

وكان على بك ، فى بدء حكمه ، يذكر ملوك مصر العظام ، من أمثال

---

(١) تجد ترجمة وافية لعلى بك فى الجزء الثانى من كتابنا : [دراسات فى تاريخ الجبرتى ، مصر فى القرن الثامن عشر] . ص ٦٨ — ٧٥ . الطبعة الثانية « مطبعة الرسالة » .

قلاوون ، و بيبرس ، و يطالع سيَرَهم . و يقول إنهم من بنى جنسه . وأن العثمانيين لم يفتحوا مصر إلا بالقهر والغلبة ، التى مكنتهم منهما : الخيانة . ولولا هذه الخيانة لما استطاع سليم الأول أن يتغلب على مقاومة مصر ، وأن يدخلها فاتحاً مدمّراً .

« بعد أن أصبح على بك حاكماً على مصر ، قرّر فى نفسه أن يستقل بها عن تركيا . وأخذ يعمل على ذلك سراً ، و يضع الخطط التى تمكّنه من غايته . وفى ١١٨٢ [١٧٦٨ م] كانت الحرب قائمة بين تركيا وروسيا فطلبت تركيا من مصر أن تمدّها بجيش مكوّن من اثنى عشر ألف جندى ، فلما شرع على بك يجمع هذا الجيش توجّست الدولة منه ومن جيشه . وظن رجال السلطان فى إسطنبول أنه بعد أن يتمّ له تأليف هذا الجيش، سيضعه فى خدمة روسيا لتحارب به تركيا . على أن تُعينه روسيا على الاستقلال بمصر. وأرسلت الدولة ، بناء على هذه الشكوك والهواجس، أمراً إلى واليها فى القاهرة ليقتل على بك . ولكن هذا كان له رجال يقظون يتجسّسون له على الدولة ، و يوافونه بأنباء الحاكمين فى إسطنبول وأسرارهم . فأبلغوه نبأ الرسالة التى أرسلت إلى الوالى فى القاهرة بقتله . فلما أوشك حامل الرسالة أن يصل القاهرة ، كان رجال على بك يتربّصون به ، فلما رأوه قتلوه . وأسرعوا بالرسالة إلى سيدهم على بك . وجمع على بك

مماليكه ورجاله ، فأعلن إليهم أن أمراً جاء من إسطنبول يطلب إلى الوالى فى القاهرة أن يقتل جميع المماليك ، وأنه استطاع أن يقتنص هذا الأمر وحامله . وكان على بك خطيباً مؤثراً خلاباً . فتحدث إلى المماليك عن ماضيهم ، ومجدهم ، وانتصاراتهم ، وحروبهم . وما كان لمصر من عزة وقوة وثروة . وأن تركيا تحقد عليهم وعلى مصر ، وتريد أن تفتك بهم جميعاً . وثارت حميّة المماليك واستشاط غضبهم . فأعلنوا خلع الوالى العثمانى ، محمد باشا الأورفلى ، وإخراجه من مصر »[1] وهذا ما كان يدبره على بك ويسعى إليه .

وبعد ذلك أعلن على بك مصر دولة مستقلّة لا سلطان لأحد عليها ولا تبعيّة ولا ولاية . وأنه ليس للدولة العثمانية وخليفتها أىّ حقّ قِبَله ولا قِبل مصر .

وبذلك أزال كل أثر للفتح العثمانى الذى كان من نتيجته دخول السلطان سليم مصر ، وتبعيّتها لتركيا : « ولايةً » من الولايات التى تخضع لاسطنبول ويحكمها سلطان تركيا العثمانى . وكان إعلان هذا الاستقلال

---

(١) ص : ٦٩ — ٧٠ من : [دراسات فى تاريخ الجبرتى ؛ مصر فى القرن الثامن عشر] ، الطبعة الثانية .

فى سنة ١١٨٣ [١٧٦٩م]. وأخذ على بك يعزّز استقلال مصر هذا ، فمنع قدوم الولاة الأتراك من اسطنبول إلى القاهرة ، فلم يجىء منهم أحد مدى أربع سنوات ، كان فيها حكم مصر كلها مصدرهُ القاهرة وحدها . ومنع إرسال « الجزية » التى كانت تدفع من مال مصر إلى تركيا منذ قرّرها السلطان سليم . وضرَب على بك نقوداً جديدة نَقَش عليها اسمه ، ولقَّبه سلطاناً على مصر ، وتاريخ استقلالها ، بالتاريخ الهجرى ، سنة « ١١٨٣ » ، ولا يزال بعضها باقياً إلى اليوم ، وعقد معاهدة تجارية حرّة بين مصر وانجلترا ، كما عقد معاهدة سياسية مع البندقيّة بواسطه تاجر من رعاياها كان صديقاً له هو: كارلو روسيتى [1] كما عقد معاهدة دفاعية هجومية مع روسيا . ثم نظر بعد ذلك إلى مناصب الدولة ، فأخرج منها من كان ميلهم إلى تركيا ليأمن خيانتهم وسوء تدبيرهم . وأمر المماليك الذين لا يطمئن إلى صدق ولائهم ألا يشترى منهم أحد أكثر من مملوك ، أو مملوكين . وكان عنده منهم ستة آلاف كما رأينا.

وكانت معاهدة على بك مع روسيا الغرَضُ منها تدعيم استقلال مصر وتقوية جيشها . نصّت المعاهدة على أن تساعد مصر روسيا فى حربها ضد

---

(١) بقى روسيتى هذا فى مصر حتى قدوم نابليون إليها . وكان قنصلا لألمانيا فى القاهرة ، وكتب روسيتى تاريخاً لعلى بك يوجد منه الآن مخطوط فى مكتبة باريس الأهلية .

تركيا . غريمة مصر التى احتلتها واستذلتها ثلاثة قرون . وأن يمد على بك الأسطول الروسى بالجند والمؤن . فى مقابل أن ترسل إليه روسيا ضباطاً لتنظيم الجيش المصرى وتدريبه على نظم الحرب الحديثة وأساليبها ، ومهندسين لأعمال الحصار ، ونصت المعاهدة أيضاعلى تحالف دفاعى هجومى بين مصر وروسيا . وبعد إتمام هذه المعاهدة أرسل على بك « ذو الفقار بك » سفيراً ومبعوثاً خاصاً منه إلى قيصرة روسيا الإمبراطورة كاترين ، وأرسلت إليه رسائل الصداقة من روسيا ، مع ضابطين روسيين ، وقدمت إليه ثلاثة مدافع حصار هدية .

وأقدم على بك على خطوة أخرى فى سبيل تدعيم استقلال مصر ورفاهيتها عن طريق التوسع فى التجارة الخارجية مع الشرق الأقصى . وأنشأ طريقاً مباشراً للتجارة بين الهند وميناء السويس . وتبادل الرسائل فى هذا الشأن مع حاكم ولاية البنغال الإنجليزى . وكان من نتيجة ذلك تأليف شركة للتبادل التجارى مع مصر . وأرسل حاكم البنغال إلى على بك يشكره على هذا التوسع التجارى واهتمامه بهذا التبادل ، وعقد معاهدة تجارية بين مصر والبنغال .

وبذلك حوّل على بك الصادرات والمتاجر الشرقية من طريقها الطويل حول القارة الأفريقية ورأس الرجاء الصالح إلى طريق البحر الأحمر ، كما

كانت قديما ، ولكن تركيا قضت على هذا الطريق بعد ذلك ، عندما مات حاكمها المستقل على بك .

قومية عربية :

أصبحت مصر بذلك وطناً مستقلاً ذا سيادة . يعقد سلطانه المعاهدات ويتبادل الرسائل مع القياصرة والحكام .

عند ذلك نزع على بك إلى أن يجعل من البلاد العربية كلها وحدة متكاملة . وأن يقيم من أهلها « قومية » عربية متماسكة . ولم يكن أمامه سوى طريق واحد ، هو أن يحارب جيوش الدولة العثمانية فى هذه البلاد كما حاربها فى مصر ، وأن يقضى على نفوذها فى هذه المنطقة كلها ، كما قضى عليه فى مصر .

كان على بك أثناء الخصومات العنيفة التى قامت بينه وبين خصومه من المماليك أبعد من القاهرة إلى الحجاز ، وأقام فيها فترة ما . فلم يقض هذه الفترة من النفى عبثاً ، بل جاس فيها خلال البلاد ، وتعرف شئونها وأحوالها . وزار ، زيارة الفاحص المتأمل الخبير ، موانيها على البحر الأحمر ، وخاصة ميناء جده . فلما تم له استقلال مصر وتدعيم مكانتها ، كون

جيشاً لتخليص بلاد الحجاز من النفوذ التركى . واختار مملوكه وتابعه « محمد بك أبو الذهب » قائداً لهذا الجيش . واستطاع جيش مصر بقيادة « أبو الذهب » التغلب على جيش الاحتلال التركى ، وعزل الحاكم العثمانى الذى كان يحكم الحجاز باسم السلطان العثمانى . ودخل أبو الذهب مكة والمدينة ، فتعززت بذلك مكانة مصر وقوى نفوذها ، وارتفع اسم سلطانها على بك ، ونودِىَ به فى الحرمين الشريفين : « سلطان مصر وخاقان البحرين والبرين » . واختار أبو الذهب حاكما مصريا على الحجاز ، هو حسن بك ، وجعل إقامته فى جده . لذلك عرِف باسم حسن بك الجداوى . وخلع الشريف أحمد ، الذى حارب جيش مصر باسم الدولة العثمانية، ونصَب ابن عمه الشريف عبد الله بدلا منه . و بذلك أشرَك أبناء البلاد فى حكمها وتدبير شئونها .

وكان الجيش الذى جرّده على بك لتحرير بلاد العرب مقسّما إلى قسمين ، أحدهما برّى ، بقيادة حسن الجداوى ، وقد استولى على الحجاز من الداخل . وثانيهما بحرى يشمل أسطولاً كبيراً وجيشاً ، وقد استولى على السواحل والموانىء . وانتصر كلا الجيشين . وتمّ التقاؤهما وتحرير بلاد الحجاز كلها من النفوذ التركى . ثم سار هذا الجيش المصرى بعد ذلك إلى اليمن فحرّرها ، وقضى على كل أثر فيها للسلطة العثمانية . وعاد حسن

الجداوى بعد هذه الفتوحات إلى القاهرة فى سنة ١٧٧٠ م .

وهنا يجب أن نقول كلمة عن تكوين هذا الجيش الذى اعتمد عليه على بك الكبير فى تحرير الحجاز واليمن ، ثم تحرير سوريا وفلسطين فيما بعد ، وإدماجها كلها فى القومية العربية .

لم يكن هذا الجيش من المماليك وحدهم ، كما كان الحال قبل حكم على بك ، بل كان يضم عددا كبيرا من المصريين .

ذكر الرحالة « فولنى »[١] — وقد شهد جيوش مصر فى سيرها إلى سوريا — أنها كانت مكونة من نحو أربعين ألفا ، منهم خمسة الآف فارس . وصف ثيابهم وبهجة ملابسهم ورواء مظهرهم ، وكان مع هذا الجيش عشرة الآف من المتطوعين المصريين . كما كان فى هذا الجيش كثيرون من المغاربة ، والسوريين ، والدروز ، والسودانيين ، وأهل اليمن ، وغيرهم ، فتكوين الجيش نفسه كان مظهرا من مظاهر الوحدة العربية ، بل كان حقيقة من حقائقها . بل إن بعض الجند الإنكشارية ، وهم جند الدولة العثمانية وعدتها فى مصر ، آمن بزعامة على بك ، وانضم لجيوش مصر ، وحارب معها لتوحيد الوطن العربى وتخليصه من السيادة التركية . وكان هؤلاء

---

(١) فولنى : كاتب فرنسى رحالة ، زار مصر وسوريا وكتب رحلة عنهما فى سنوات ١٧٨٣ ، ١٧٨٤ ، ١٧٨٥ .

الذين انضموا الجيش على بك من الانكشارية ، يعملون تحت قيادة المماليك « الأمراء المصرية » كما يسميهم الجبرتى .

وبهذا كان على بك « أول من جند المصريين فى خدمة الجيش من زمن طويل سابق لهذا العهد — إذ كانت الخدمة العسكرية موكولة للمماليك وحدهم — فوجد على بك أن رغبته بالاستقلال بمصر لا تتيسر إلا بإشراك المصريين أنفسهم فى الدفاع عن بلادهم » [1]

« ولما كثرت حروبه أدمج كثيراً من الأهلين فى صلب جيشه ، بل حاول أن ينشىء جيشاً مصرياً بحتاً يعهد إلى بعض الضباط الروس بتدريبه على النظم الأوربية وإنشائه على الطراز الحديث ، بدلا من الطراز المملوكى القديم [2] .

بعد أن اطمأن على بك إلى استقرار الأمن فى الحجاز واليمن ، انتقل إلى تخليص سوريا من النير العثمانى . فألف جيشا من ثلاثين ألف جندى ، واختار لقيادته أيضا مملوكه أبو الذهب . وسار هذا الجيش من نصر إلى نصر حتى دخل دمشق وفتح الطريق إلى جبال طوروس ، واندحر الجيش العثمانى فتحررت منه سوريا كلها ، وأصبحت جزءا من الوطن العربى الكبير ، الذى

---

(١) ص ٥٩ من كتاب : [ثورة على بك الكبير] للاستاذ أنور زقلمة ، « البيان العربى ١٩٥٢ » .

(٢) ص ٧٤ من المصدر السابق .

خلع نير الحكم، بل الظلم، العثمانى. ووحّدت مصر بين أجزائه كلها. ماعدا فلسطين.

وهنا بدأ ظل الخيانة ، وكان التواطؤ بين الدولة العثمانية و بين محمد أبو الذهب ، مملوك على بك وتابعه ، على أن يخرج المملوكُ القائد عن طاعة سلطانه وسيده على بك. على أن تترك الدولة لأبى الذهب حكم سوريا ومصر ، وتمنحه رتبة الباشوية ، التى لم ينلها على بك ولا أحد من المماليك . و بعض المؤرخين يقول إن الدولة أعطت أبو الذهب ذهبا كثيرا ، رشوة له على هذه الخيانة .وتم الاتفاق على أن يعلن أبو الذهب رجوع مصروسوريا إلى التبعية العثمانية . واستخدم الدين أيضا وسيلة لقبول هذه الخيانة . وأعلن العثمانيون أن على بك يحارب « خليفة المسلمين » وأنه ينتصر عليه بالأجانب الغير المسلمين

بعد أن تم التواطؤ على هذه الخيانة . بدأت مراحل تنفيذها بعودة أبى الذهب مع جيشه إلى مصر ، أى الإنسحاب من سوريا ، بعد تطهيرها من العثمانيين ، وتركها لهم صيداً فى اليد . و إشاعة الكراهية والحسد فى نفوس المماليك ورجال الجيش ضد على بك والزعم بأن الجيش قاتل وحارب وانتصر فى سوريا وغيرها ، بينما على بك فى القاهرة يجنى ثمار هذا الانتصار وينال بها المجد والعزة والملك . وعاد أبو الذهب وجيشه إلى القاهرة ، وكانت خالية أو شبه خالية من الجند . فاستولى أبو الذهب عليها . وخرج منها على بك إلى صديقه الشيخ ظاهر عمر ، حاكم عكا ، و بمعونة الشيخ

ظاهر ومعونة قطع من الأسطول الروسى كانت تقف فى مينائها ، استطاع على بك أن يتغلب على فلول الجيش العثمانى . وأن يعيد الوحدة بين مصر وسوريا . بل استولى على الجزء الأكبر من فلسطين أيضا . وهزم العثمانيين فى معركة فاصلة بالقرب من قرية « صمير » فى يوليو من سنة ١٧٧٢ .

وبدأت خيوط الخيانة تمتد . فاتفق أبو الذهب مع جماعة من الخونة على أن يرسلوا لعلى بك خطاباً يشكون فيه من ظلمه ـ أى ظلم أبى الذهب ـ ويطلبون من على بك أن يبادر بالرجوع إلى مصر لينقذهم من ظلمه. وكان على بك يتهيأ لتصفية حسابه مع أبى الذهب ، وتأديبه على خيانته وإفساده ، فبادر بالرجوع إلى مصر ، معتقداً أنه سيفجؤ أبا الذهب فى القاهرة على غرّة ، ويفتحها عليه ، وسيكون الشاكون المدلّسون عوناً له على أبى الذهب . حتى يخلُصوا من ظلمه ، كما زعموا . ولكن أبا الذهب كان على علم بقدوم على بك . فتلقّاه مع جيشه عند الصالحية . ومع أن جيش على بك كان أقل عدداً من جيش أبى الذهب ، فقد استطاع على بك أن يتغلب أول الأمر ، ولكن أبا الذهب استطاع أن يتصل بخائنين آخرين من جيش على بك وأن يَفتِنَهم عن أمانة سيدهم وزعيمهم . وعادت الحرب مرة أخرى ، فهزِم على بك وجرح وجهه ، ووقع فى أسر مملوكه وتابعه الخائن أبى الذهب . بعد أن بلغ غاية الشجاعة فى

الحرب ، و بعد أن أبلى فى الدفاع عن نفسه أكرم بلاء ، وقتل حوله خاصة حرسه كلهم . ووقف أبو الذهب يتلقى سيده على بك وهو جريح ، و يصف الجبرتى ، صديق على بك وأبا الذهب ، هذا اللقاء وصفاً شاعرياً ، يقول إن أبا الذهب قبّل يد على بك ، وأعانه على السير ، ورافقه إلى خيمته فأجلسه فى صدرها ، فى موضع جلوسه هو ، ثم نقله إلى القاهرة مريضاً ، فأحضر له أبو الذهب عدداً من الأطباء لتمريضه . ولكن على بك مات بعد وصوله القاهرة بسبعة أيام . وتحدث الناس فى القاهرة عن السم الذى دس للبطل الشهيد على بك،وسجل الجبرتى حديثهم هذا.وقد رأينا من صفات الخيانة والغدر عند أبى الذهب ما يجعل هذا الحديث محتملا ، أو ممكنا، أو راجحا . وكانت وفاة على بك فى اليوم الخامس عشر من صفر سنة ١١٧٨ [٨ مايو ١٧٧٣] م ودفن فى قرافة الإمام الشافعى إلى جوار أستاذه إبراهيم كتخدا .

ولم يفِد الخائن أبو الذهب من غدره شيئاً . فقد خرج بعد ذلك لحرب الظاهر عمر حليف على بك ، فى عكا . ولكنه لم ينل ما يريد ، فقد فاجأه الموت بعد قليل.وكانت الدولة العثمانية بدأت تدفع له ثمن خيانته ، فأنعمت عليه برتبة « الباشوية » ، ولكنه مات قبل أن تصل إليه براءتها . ودفن فى مسجده أمام الجامع الأزهر . بعد أن نقل من سوريا، حيث مات ، إلى القاهرة . فتغيرت رائحته . وكانت تسير أمام نعشه مجامر العود والعنبر لستر الرائحة .

وهكذا نجد أن مصر قد نالت استقلالها كاملا غير منقوص ، وتحررت من التبعيّة العثمانية ومن الاحتلال التركى ، وقامت بعد ذلك بتحرير البلاد العربية من هذه التبعية وهذا الاحتلال . وقامت ، على يد مصر ، وحدة عربية كاملة شملت بلاد الحجاز ، وسوريا ، واليمن ، وفلسطين . وكان هذا كله على يد جيش مصرى شجاع ، يقوده بطل مصرى الشعور والعاطفة والإحساس . هو على بك الكبير . ولولا الخيانة التى لجأت إليها الدولة العثمانية وتابعها أبو الذهب لبقيت هذه الوحدة ماشاء الله لها أن تبقى - ولتغيّر وجه التاريخ فى هذه المنطقة من الوطن العربى ، وأغلبُ الظن أنه كان يتغير فى مواطن أخرى من العالم .

وقد لقيت هذه الوحدة بين البلاد العربية يوم ذاك صدى عميقا من البهجة والفرح . فقد كان هذا الانتصار على الجيوش العثمانية ثأراً لمصر ، استردت به كرامتها التى أهدرتها الخيانة أيضا فى «مرج دابق» ، ومعارك القاهرة وغيرها مع السلطان سليم ، وثأراً لدم سلطان مصر الشهيد « طومان باى » الذى سفكه سليم عدوانا وظلما [1]. فعندما وصلت القاهرة أنباء الانتصارات التى نالتها جيوش مصر على الجيش العثمانى

---

(١) أنظر فصل : [السلطان الشهيد طومان باى] فى هذا الكتاب .

فى سوريا ، أقام أهلها الزينات الرائعة ، والأفراح البهيجة، ولبست أحياءها كلها أبهى حلة من الأنوار والأعلام . ودامت هذه الأفراح والزينات ثلاثة أيام بلياليها ، وأقيمت الولائم فى كل مكان . وأطلقت المدافع ، وسارت المراكب فى النيل تزينها الأنوار ليلا ، وتطلق منها الصواريخ . واستولى على الناس جميعا الفرح الشامل والسرور البالغ .

* * *

وكذلك شهد المصريون فى حكم على بك من الأمن والرخاء مالم يسعدوا به من قبل . كان المسافر ، كما قال الجبرتى ، يسير ، بمفرده ، ليلا « راكباً أو ماشيا . ومعه حمل الدراهم والدنانير ، إلى أى جهة . ويبيت فى الغيط أو البرية » وهو آمن لا يناله سوء ، ولا يعتدى عليه أحد .

وحارب على بك ، بقسوة بالغة ، المفسدين والمرتشين . ولو كانوا من العلماء . وكان بعضهم يتدخل لدى القضاة ، ويقدم لهم ، عن أحد طرفى الخصومة ، رشوة . فعاقبهم ، وعاقب القضاة الذين يقبلون ذلك ، واشتد فى عقابهم بالضرب والنفى ، والقتل أيضاً . وكذلك فعل مع اللصوص وقطاع الطرق . فكان ما رأينا من الأمن والطمأنينة .

وكذلك وصف الجبرتى ، وقد شهد هذه الفترة ، ما كان فى مصر من الرخاء فقال إن الحياة كانت رخية ، والمكاسب وافرة ، والخير كثيراً .

وشهد الرحالة الفرنسى سافارى بأن مصر سعدت فى عهد على بك بنزاهة فى الإدارة والحكم كانت تتطلع لها منذ أمد طويل .

وكان على الكبير يتمتع بمكانة شعبية كبيرة ، ومحبة يشترك فيها الناس جميعا .

كان علماء الأزهر — زعماء الشعب وسفراءه يوم ذاك — يؤيدونه ويرجحون كفته على الدوام فى خصوماته الكثيرة العنيفة مع المماليك ، فى أول عهده . كان يترك القاهرة فى بعض الأحيان ، مغاضباً أو مقهوراً ، فكان العلماء والناس يطلبونه حتى يعود . وقد اشتد الشيخ محمد الحفناوى ، أو الحفنى ، وكان أبرز علماء عصره وأكثرهم شجاعة ونزاهة وزهداً [1] اشتد الشيخ محمد الحفنى على خصوم على بك من المماليك وألقى عليهم حديثاً شديداً عنيفاً ليتركوا مخاصمته التى كانت سبباً فى « خراب الأقاليم والبلاد » كما قال الشيخ الحفنى ، فلم يغضبوا من حديثه وشدته .

---

(١) ترجمة الشيخ الحفنى ص : ١٥٧ — ١٦٢ من كتابنا (دراسات فى تاريخ الجبرتى ، مصر فى القرن الثامن عشر) الجزء — ٢ — من الطبعة الثانية .

وكان على بك يمتاز بالهيبة العظيمة والذكاء الفائق ، وروى الجبرتى أن بعض من دخل عليه مات من الرعب . ولـكنه كان ، إلى ذلك ، رقيقا ، مؤنساً . يلاطف جلساءه . ويقرأ ما يرفع إليه من الشـكاوى بنفسه . ولا يوقّع على أمر إلا بعد أن يتدبّره ، مهما كان صغيراً . وكان يقرأ التاريخ ، وسير ملوك مصر . ولا يجالس إلا أهل العلم والوقار ، ولا يكثر من الـكلام مع جلسائه ، ولا يضاحكهم ، مهما علت مكانتهم .

وأما حكمه ، فقد امتاز بإبطـــال الرشوة . حيث كان يتتبع بنفسه المرتشين ، فينزل بهم أشد العقاب ، ولو كانون من أهل النفوذ والسطوة . وأولى عناية كبيرة بأمن البلاد حتى كان المسافر يسير منفردا ، من بـلد إلى بلد ، ليلا ، وهو يحمل المال الـكثير . ثم لا يعترضه سارق ولا مغتصب . كما رأينا من قبل .

ومن مماليكه مراد بك وإبراهيم بك . ولهما فى تاريخ مصر بعد ذلك دور هام ، وأحمد باشا الجزار ، الذى ردّ نابليون عن أسوار عكا .

محاولة أخرى لاستقلال مصر

من عظماء الرجال الذين ترجم لهم الجبرتى من المصريين فى تاريخه الحافل : « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » : المعلم يعقوب ، زعيم القبط ورئيسهم فى عصره .

وقد ترجم له الجبرتى ولكنه لم يوفه حقه . ونحن نلخص سيرته عن الجبرتى وعن مصادر أخرى مختلفة ، فى هذه السطور . ثم نتحدث عن محاولة له لنيل استقلال مصر .

ولد يعقوب فى ملوى حوالى سنة ١١٥٨ (١٧٤٥ م) ثم دخل فى خدمة كبير الانكشارية سليمان أغا أيام حكم على بك الكبير . وكان يتولى إدارة الشئون المالية لسليمان أغا هذا ، فجمع من عمله وسعيه ثروة كبيرة . فلما جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر ، أعانها يعقوب وانحاز إليها وقدم لها مساعدات ذات قيمة .

فقد التحق بجيش الجنرال ديزيه قائد الفرنسيين فى الصعيد . وشارك هذا القائد فى مطاردة مراد بك ، وكان يدبر لهذه الحملة ماتحتاجه من مؤن ، ويحارب بسيفه أيضاً معها . فلما عادت الحملة إلى القاهرة ، وكل إليه الجنرال

كليبر تنظيم مالية البلاد ، واستخلاص الضرائب والمغارم التى يفرضها الفرنسيون على مصر . وعلى الثائرين من أهلها خاصة . ويقول الجبرتى إن الفرنسيين أطلقوا له فى ذلك حرية واسعة ، وجعلوا له نفوذ كبيراً بعد ثورة القاهرة الأولى عليهم ، فكان يفعل بأهلها ما يشاء[1]. حتى جمع للفرنسيين ما فرضوا من مغارم ثقيلة .

وقد هدم يعقوب الأماكن المجاورة لمسكنه فى حارة النصارى ، وخلف الجامع الأحمر . و بنى له قلعة سوّرَها بسور عظيم ، ووضع فيها الأبراج وأقام فيها المدافع . وكذلك فعل بما يحيط بحارة النصارى كلها . وأقام على ذلك كله حراساً مسلحين ، على النظام الفرنسى .

ولما جاءت الجيوش العثمانية والإنجليزية لإخراج الفرنسيين من مصر ، كان يعقوب يعمل قائداً مساعداً للجنرال بليار . يدافع معه عن القاهرة حتى لا تدخلها هذه الجيوش .

وقد كافأه الفرنسيون ، فأنعموا عليه بسيف ، وجعلوه مستشاراً لهم ومديراً للشئون المالية والضرائب ، ثم أنعموا عليه بلقب جنرال .

---

(١) هذا ما يقرره الجبرتى . وسنرى بعد قليل ما يقوله المعلم يعقوب من أنه كان يستخدم مكانته ونفوذه عند الفرنسيين فى التخفيف عن المصريين .

ولما خرجت الحملة الفرنسية من مصر ، كان من شروط تسليمها أن يُسمَح لمن يشاء من الذين عملوا معها ، ولو لم يكن فرنسيا ، أن يصحبها ، فخرج يعقوب وركب البارجة الانجليزية بللاس ، مع الجنرال بليار. وكانت آخر البوارج التى غادرت ميناء الإسكندرية . وبعد يومين من سفرها أصيب الجنرال يعقوب بمرض ، ثم مات فى صباح يوم ١٦ أغسطس سنة ١٨٠١ ولم تلق جثته فى البحر ، بل حملت إلى حيث دفن فى مرسيليا بمقبرة القديس بطرس . بعد أن شيع جثمانه فى احتفال عسكرى مهيب .

وقد نشرت الجمعية الجغرافية المصرية فى القاهرة سنة ١٩٢٤ وثائق[١] محفوظة فى وزارة الخارجية البريطانية تتضمن مشروعاً كان المعلم يعقوب قد تحدث به إلى رجال البارجة ، وهى فى طريقها من الإسكندرية إلى مرسيليا . ويتضمن المشروع بنوداً وعروضاً لاستقلال مصر بضمانة الدول الأوربية عامة ، وانجلترا خاصة . ويبيح تكوين جيش مصرى خالص ، لردّ العدوان عن هذا الاستقلال .

وقد اختلف المؤرخون فى الحكم على المعلم الجنرال يعقوب حنا ، بعضهم يرى أنه كان زعيما وطنيا آثر أن يعين الفرنسيين حتى يخلص وطنه

(١) نشرت نصوص هذه الوثائق أيضاً فى مجلة مصر الحديثة المصورة ، عدد يونيو سنة ١٩٢٨ . نقلا عن وثيقة وزارة الخارجية البريطانية برقم : ٧٨ مجلد : ٣٨ .

من حكم الأتراك والمماليك . فلما فشل فى ذلك بالحرب ، حاوله بالسياسة . وتحدث فى ذلك إلى رجال البارجة الانجليزية ، تمهيداً للحديث فيه مع كبار الساسة منهم .

و بعضهم يقول : إنه أراد أن يكسب لقومه مغانم وجاهاً ،[1] .

وأيًّا ما كان القول فى الجنرال يعقوب ، أو المعلم يعقوب حنا ، فنحن نجد فى هذا المشروع الذى كان يسعى إليه لتحقيق استقلال مصر شيئاً من الضوء على عواطفه وأهدافه ومراميه ، ومن ثمّ على شخصيته وسيرته .

مشروع المعلم يعقوب

ركب المعلم يعقوب البارجة الإنجليزية : « بلّلاس » وهى البارجة التى رحل عليها القائد الفرنسى الجنرال بليار عند مغادرته مياه الإسكندرية مع جيوش نابليون المنسحبة من مصر . وغادرت البارجة الميناء يوم ١٠ من أغسطس سنة ١٨٠١ ، وقبل أن تقلع البارجة تلقى الجنرال بليار كتابا

(١) بتلخيص عن كتابنا (دراسات فى تاريخ الجبرتى ، مصر فى القرن الثامن عشر) ص : ١٥٩ — ١٦١ من الجزء الأول ، الطبعة الثانية . « الرسالة » .

من القائد التركى قبطان باشا حسن يستميل فيه المعلم يعقوب البقاء فى مصر ، ويرجو من القائد الفرنسى أن يبذل وساطته عنده ليعدل عن عزمه على مغادرة مصر ، ولكن هذه الوساطة لم تفلح .

وفى اليومين التاليين لرحيل البارجة أفضى المعلم يعقوب بتفاصيل مشروعه لقائد البارجة الضابط : « جوزيف أدموندس » وكان القائد يسجل هذه التفاصيل ويرسلها إلى الكونت سان فنسان ، اللورد الأول فى انجلترا ووكيل البحرية البريطانية . ومن هنا ندرك المكانة التى كان يتمتع بها هـــذا الزعيم المصرى ، والاهتمام الذى لقيه شخصه ولقيه مشروعه لاستقلال مصر .

يقول يعقوب فى حديثه مع قائد البارجه إن حكم الأتراك لمصر كان أسوأ حكم يمكن أن يتصوره إنسان . ومع هذا فقد كان يستطيع أن يبقى فى وطنه ، وأن يعيش فيه سعيداً هانئاً منعماً بثروته الكبيرة . ولكنه يريد أن يحقق لوطنه خيراً بالسعى إلى استقلاله . وهو يشعر بأن له منزلة ملحوظة عند الفرنسيين — ولو أنه لا يبرئهم من خداعه — ، وأنه استفاد من هذه المنزلة فى تخفيف كثير من الآلام التى أوقعها الفرنسيون على أبناء وطنه فى فترة احتلالهم مصر . لذلك يعتقد أن مسعاه لهذا الاستقلال سيلقى انتباها وتشجيعاً من نابليون إذا عرض عليه والتقى هو به شخصياً .

كما سيأتى حديثه ومشروعه مثل هذا الانتباه والتشجيع من الدول الأوربية الأخرى ، ومنها انجلترا .

ومن ذلك نعرف أن المعلم يعقوب كان يريد أن يجعل من قضية مصر واستقلالها « مسألة دولية » . وهو الوضع الذى أخذته المسألة بعد ذلك فعلاً بعد قرن وربع قرن ، بعد أن خرج منها الأتراك واحتلها الانجليز . أى بعد انتهاء الحرب العظمى الأولى .

ولكى يجعل المعلم يعقوب لقضية مصر هذه المنزلة الدولية ويبرر استقلالها أيضا ،قال إن مصر بوصفها الجغرافى ومكانها وسط العالم المتحضر المتخاصم ، ووقوعها على بحرين من أهم بحار العالم ، وقارتين من أكبر قاراته ، مصر بوصفها هذا ستكون ، وهى مستقلة ، ميزاناً للقوى فى هذه المنطقة وعاملا من عوامل « الحياد » وتلطيف الخصومات الحادة التى كانت قائمة متمكِّنة يوم ذاك بين إنجلترا وفرنسا . كما تكون معبَراً أمينا لتجارة العالم مع آسيا . وتكون موانيها وتجارتها ومحاصيل أرضها الخصبة من أكبر عوامل الرخاء لدول أوربا .

فقد كان المعلم يعقوب — إذن — يفكر — وهو يعرض مشروعه — فى موقف «الحياد» الذى تتخذه مصر المستقلة . ولو كان اصطلاح « الحياد

الإيجابى » الذى تنادى به الجمهورية العربية المتحدة الآن معروفا يوم ذاك ، فأكبر الظن أن المعلم يعقوب كان ينادى به و يلتزمه لوطنه .

بعد أن انتهى يعقوب من إيراد المبررات لاستقلال مصر ، وانتهى من ذكر فوائد هذا الاستقلال للدول الأوربية ولأمن العالم كله ورخاءه ، انتقل إلى نوع الحكم الذى تحكمُ مصر نفسَها على أساسه : كيف يحكم المصريون أنفسهم . . . ؟ وكيف يدافعون عن بلادهم ؟ .

يقول يعقوب فى جواب السؤال الأول إن حكم الأتراك والمماليك لمصر جعل أهلها يقبلون ، بل يرحبون ، بحكومة تخرجهم من ظلم الأتراك وجبروتهم ، و يقبلون ، بل يرحبون ، بحاكم مصرى منفرد ، يكون له عليهم السلطان المطلق ، حتى يتحقق لهم على يديه الأمن والرخاء ، و يصلح أحوالهم المضطربة ، و ينمىّ زراعة أرضهم الخصبة التى يضعف الاستفادة منها الظلمُ وعدم الاستقرار . وما دامت مصر نالت استقلالها باتفاق الدول الأوربية ، فستضمن هذه الدول حيادها ، وتهيّيء لحاكمها هذا جميع الفرص للنهوض ببلاده فى مقابل المزايا التى تنالها الدول الأوربية ، والتى ذكرها من قبل .

و يقول المعلم يعقوب فى جواب السؤال الثانى إن مصر فى هذه الحالة

أن يقع عليها عدوان إلا من جانب تركيا ، التى تريد أن تعيد سيطرتها الظالمة عليها ، ومن جانب المماليك الذى استمروا حكمها وجعلوا منها مسرحاً لخصوماتهم وحروبهم . وعلاج ذلك أن يؤلف جيش مصرى خالص يبدأ تكوينه بنحو ١٢ أو ١٥ ألف جندى[١] . وهذا الجيش المصرى كافٍ لحصر الأتراك فى الصحراء إذا حاولوا الرجوع إلى مصر مرة أخرى ، وللقضاء على المماليك فى داخل البلاد .

وكان المعلم يعقوب وهو يفكر ويتحدث عن حكمْ مصرى خالص ، وحاكم مصرى منفرد بالحكم موصوفٍ بالوطنية والعدالة والحرص على خير بلاده . كان وهو يفكر ويتحدث فى ذلك يستذكر مثلا قام فى مصر وشهدَه هو ، كما شهده وحَمَده إقليم من أقاليم مصر فى الصعيد . وهو حكم شيخ العرب همّام ، زعيم الهوّارة[٢] وقد ذكر اسم هذا الحاكم فعلاً وتحدث عن فترة حكمه وهو يفصّل مشروعه للقائد الإنجليزى چوزيف أدموندس ،

---

(١) كان عدد سكان مصر فى ذلك الوقت أقل من ثلاثة ملايين .

(٢) كان يقيم فى « فرشوط » ويحكم منطقة واسعة من الصعيد . وكان نادر المثال فى كرمه وخلقه ، واسع الثروة والجاه : أنظر ترجمة له فى الجزء الأول من كتابنا : (دراسات فى تاريخ الجبرتى ، مصر فى القرن الثامن عشر ، ١٥١ — ١٥٤ من الطبعة الثانية) : وكان الجبرتى يسميه : « الأمير » شرف الدولة همام بن يوسف ابن أحمد الهوارى ، ملجأ الفقراء والأمراء .

وقال إن مثل هذه الحكومة المصرية الخالصة ستكون « من المؤكد محترمة ومطاعة ومحبوبة ». وأنها ستضمن العدالة لجميع المصريين. أكثريتهم المسلمة وأقليتهم القبطية على السواء . وأنه — وهو زعيم قبطي — يؤمن بذلك ويؤكده ، وأنه يتحدث عن ذلك باسم طائفته المسيحية .

وكذلك يقول المعلم يعقوب إنه، وهو يعرض مشروعه هذا لاستقلال مصر وحيادها ، مفوّض من « البعثة المصرية » التى يوجد بعض أفرادها معه فى البارجة الإنجليزية وبعضهم لا يزال فى مصر ، ولكن من المجازفة إعلان ذواتهم وكشف أسماءهم ، خوفا عليهم من انتقام الأتراك .

و « اسم البعثة المصرية » الذى اختاره يعقوب لجماعته يذكّرنا باسم « الوفد المصرى » الذى تألف بعد ذلك بأكثر من قرن ، عقب هدنة الحرب العالمية الأولى فى سنة ١٩١٨ برئاسة سعد زغلول للسعى لاستقلال مصر وتخليصها من الإحتلال الإنجليزى . بل يكاد الإسمان أن يكونا متطابقين .

ثم يقول المعلم يعقوب إنه وأعضاء البعثة المصرية ، يشاركهم فى ذلك عقلاء المصريين ، يعتقدون اعتقاداً جازما بأن حصول مصر على استقلالها : « يبدّد ظلام الجهل والهمجية الذى يخيّم على تلك البلاد الشهيرة ، التى

كانت مهد النور والعلوم والفنون ، بل مركز المدنيات الأولى التى نقلها الإغريق عنها ... وأن استقلال مصر هذا سيجعلها ، بلا شك ، عامرة زاهرة غنية بمحصولاتها الغزيرة من أرضها الخصبة ومركزها التجارى فى أفريقيا».

ثم يقول إن مراد بك كان يدرك مطامع الدول الأوربية فى مصر ، وأنها تتجسس عليها وتعرف من أمورها الشىء الكثير وتتطلع لامتلاكها ، وأن ذلك سيكون سببا دائما لتنازع الدول الأوربية . ومراد بك على حق فى فهمه وفى تخوفه وفى استنتاجه ، وليس هناك مخرج من هذا كله سوى استقلال مصر وضمان حيادها . وهذه نظرة للمعلم يعقوب أظهرت الأيام فيما بعد صدقها وخاصة فى القرن التاسع عشر ، عندما صارت « المسألة الشرقية» من المشاكل العالمية الكبرى ، كما نعرف .

ثم يعود المعلم يعقوب مرة أخرى إلى ذكر ضرورة الحرص فى معالجة هذا الأمر والحرص على السرية التامة فى شأن المتحدثين فيه ، فيقول : «إن البعثة المصرية متصلة بلا تحزب ، بالعناصر الوطنية المختلفة فى مصر . ولها فروع منتشرة خفية ، وستبقى فى خفية عن عيون الحكومة التركية فى مصر . وهذا حذر لا بد منه توقيا من الاستبداد المريب الذى لا يتأخر عن تضحية آخر فرد من الإخوان المشتغلين بهذا الأمر ، إذا علم ذلك ... إن الذين خرجوا من مصر يستطيعون أن يكونوا فى مأمن من الاضطهاد

والخطر . ولـكن ذلك ليس شأن إخواننا فى مصر ، لأنهم تحت السيف والعصى . فهم مكرهون على التخفى والتظاهر بأنهم العبيد النيوزون المخلصون للباب العالى» « التركى ».

هذه خلاصة وافية أمينة لمشروع المعلم يعقوب لتحقيق استقلال مصر الذى تحدث به إلى قبطان البارجة الإنجليزية وهى تشق مياه البحر الأبيض من الإسكندرية إلى مرسيليا . وقد كتب المترجم « لاسكارس » وثيقة هذا المشروع بعد وصول البارجة إلى ميناء طولون ، فى ٢١ سبتمبر من سنة ١٨٠١ .

ولـكن صاحب هذا المشروع وهذه المحاولة،ورئيس« البعثة المصرية » إلى أوربا كان قد مات قبل أن يسجل المترجم « لاسكارس »[١] تفصيل ما تحدث إليه به صاحب المشروع : المعلم يعقوب .

فقد مرض يعقوب بعد رحيل البارجة بيومين . وظل مريضاً إلى أن

(١) كل ما يعرف عن لاسكارس هذا أنه ولد فى سنة ١٧٧٤ فى بروفنس — جنوبى فرنسا — وأنه كان فى جزيرة مالطة عند ما دخلها نابليون فى طريقه الى مصر ، ومن جماعة « فرسان مالطة » . ثم سار مع حملة نابليون الى مصر . وعند انسحاب الجيش الفرنسى منها ألحق بصحبة المعلم يعقوب وقامت بينهما صداقة مشتركة زادها توثقاً ما كان يتمتع به لاسكارس من الذكاء وسعة الخيال .

مات بعد ستة أيام ، كما سبق ، فى ١٦ أغسطس . ولم تطرح جثته فى البحر ، كما جرت العادة ، بل حفظت فى برميل من « الروم » ، وأنزلت فى مرسيليا يوم ٢٢ سبتمبر ، حيث دفنت فيها .

وبذلك طوت المقادير صفحة من كفاح مصر للحصول على استقلالها . وطوى الموت المفاجىء بطلاً من أبطالها الذين حاولوا « تدويل » القضية المصرية بغية الحصول على هذا الاستقلال ، وعلى حياد مصر أيضاً .

مؤرخ القومية العربية
وعدو محمد على

هذه بطولة لم تكن فى موقف واحد ، أو عدة مواقف برزت فى حياة إنسان ، وهذا بطل لم يكفِه أن يقف موقف البطولة أمام حادثة واحدة ، أو رجل واحـد ، أو ظرف خاص . بل هى بطولة جابهت المواقف والأحداث جميعاً ، وهو بطل كانت حياته كلها موقفاً واحداً متلاحقاً متصلا من البطولة النادرة والشجاعة الباقية الخالدة . وخاصة فى ختام حياته ، حيث كان يستطيع أن يجد من مرضه ، وحاجته ، وشيخوخته عذراً للتقية أو التخلف ، أو المداراة . بل كان يستطيع أن يجد عند خصمه وعدوه : « محمد على » المـالَ والجاه والراحة ورغَد الحياة . ولكنه مصرىّ عظيم ، عاش بطلا ومات ميتة الأبطال .

« ها نحن أولاء نرى مثلاً ناطقاً بقوة الحق وسلطان الصدق .. فمحمد على الذى أزال دولة المماليك وزحزح ملك آل عثمان فى مصر وهدّده خارجها ، وأسس ملكا دام مائة وخمسين سنة ، واصطنع ما استطاع من حيلة وكيد ، لم يستطع أن يسكت صرير القلم ولا أن يطمس نور الحق ، وصدقت

كلمة الله .. أما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض ، كذلك يضرب الله الأمثال . »[1]

أما صرير القلم الذى لم يستطع محمد على أن يسكته ، رغم ما اصطنع من حيلة وكيد ، فكان منه ذلك السجل الرائع الحافل الشيّق الذى ألفه الجبرتى عن تاريخ مصر « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار »

ومؤرخنا ، عبد الرحمن الجبرتى ، من أسرة عريقة ، نزح جده السابع — واسمه عبد الرحمن أيضاً — من « جبرت » وهو إقليم إسلامى فى الحبشة . وأقام بالحجاز زمناً ، ثم قدم مصر واستقر بها وقد بقيت مشيخة هذا الرواق : « الجبرت » فى الأزهر يتداولها أبناؤه وأحفاده ثلاثة قرون . حتى خرجت منهم بوفاة عبد الرحمن الصغير هذا .

وكان الشيخ حسن ، والد عبد الرحمن ، عالماً واسع الثراء ، مرفّه العيش ، كبير المنزلة . يعيش متنقلا بين قصوره فى القاهرة ، وعلى شاطىء النيل ، فى بولاق . وكان صديقاً لكل أمير من المماليك ، الذين عاصرهم ،

---

(١) من البحث الذى كتبه الاستاذ أحمد حسن الزيات ، عن كتابنا « دراسات فى تاريخ الجبرتى ، مصر فى القرن الثامن عشر » وألقاه الأستاذ إبراهيم مصطفى عند ما أعلن « مجمع اللغة العربية » استحقاق الكتاب لجائزة المجمع الأولى عن البحوث الأدبية [جلسة المجمع العلنية لتوزيع الجوائز فى مساء يوم الأربعاء ١٨ مايو سنة ١٩٥٥] . ص : ٤٧ — ٥٠ من « مجلة مجمع اللغة العربية » الجزء — ١١ — سنة ١٩٥٩ .

وللولاة العثمانيين الذين كانوا يوفدون من الدولة لحكم مصر . كما كان متين الصلة بعلى بك الكبير الذى استقل بحكم مصر فترة قليلة من الزمن والذى تحدثنا عنه فى الفصل السابق، وكان يتقن اللغة التركية، لغة الحكم والسيادة ، إذ ذاك . ويعرف علوم الطب ، والفلك . والموازين — ويجيد صنعتها وتحريرها — كما يعرف علوم الفقه . ويقول الشعر . وتولى ، وهو عالم ، بعض الوظائف الكبرى . فكان حاكما على قلاع العريش ، والطور ، ومويلح ، ثم قتل أحد عبيده فى قلعة منها ، فزهد هذه الوظائف وتركها .

وفى سنة ١٧٥٤ « ١١٦٧ هـ » ، فى يوم من أيام الاعتدال ، بشر الشيخ حسن الجبرتى بأن قد ولد له غلام من إحدى سراريه الكثيرة . وأغلب الظن أنها كانت شركسية ، أو تركية . وكان حريا بالشيخ أن يبتهج قلبه ، وأن تطيب نفسه بهذه البشرى . ولكن هذه البهجة وهذا السرور كانا مشوبين بكثير من الحزن والقلق والتوجس . إذ كان قد ولد للشيخ قبل هذا الغلام ، نحـــو أربعين مولوداً ، بين ذكر وأنثى ، لم يعش منهم أحد .

وشاء الله أن يعيش هذا الغلام ، الذى سماه أبوه « عبد الرحمن » وأن يولد للشيخ بعده غلامان ، ماتا طفلين . ثم شاء الله أن يبقى عبد الرحمن هذا ، وحده ، من ذرية الشيخ . وأن يعمر حتى يجاوز السبعين . وأن يكون

هو مؤرخ مصر الحديثة ، ومؤلف « عجائب الآثار فى التراجم الأخبار » .

وأخذت تنقرض — بموت عبد الرحمن هذا — أسرة الجبرتى ، بعد أن بقيت ثلاثة قرون تنجب رجالا لهم فى مصر صدارة العلم والخلق الكريم ولهم كذلك كرامة المال والثراء .

وشاء الله أيضا أن تحترق ، بعد فاته ، المكتبة الحافلة العظيمة ، التى تركها له أبوه ، والتى زاد فيها أيضا . وأن يحترق معها بيته ، فى الصنادقية قريبا من الأزهر . لذلك عاشت بنته وابنه — أو ابناه على خلاف بين المؤرخين — عيشة ضنكا . بعد أن فقد منهم المال ، وأبعد عنهم العلم . وفقدوا بذلك الصدارة والكرامة .

وكان أبوه محبا للأغانى والقصص . فكان يحدثه عما يعرف من أنباء عصره . وقصص أصدقائه من الأمراء والمماليك ، والولاة . ثم مات أبوه ، وهو فى الثانية والعشرين . وخلف له ثروة ضخمة ، مادية وأدبية . فقد كانت لأبيه ، كما ذكرنا ، مكتبة عامرة بنفائس المخطوطات ونوادرها . كما ترك له مكانا بارزا مرموقا عند العلماء والأمراء على السواء .

هذه الثروة وتلك المكانة ، مكنتا له من صداقة الأمراء والولاة .

فكان على صلة وثيقة بهم ، وهو بذلك مؤرخ عليم ، دقيق . متصل بأهـــــل السلطان . وخاصة بمحمد بك الألفى آخر العظماء من المماليك .

ولكن هذه الصلات التى كانت تصل إلى الصداقة المتينة ، لم تحل بينه وبين أمانة المؤرخ ، فهو يقسو أشد القسوة على أصدقائه من كبار المماليك والولاة إذا رأى فى تصرفهم ما يبرر هذه القسوة ، بل يمدح الفرنسيين ويطرى نابليون ، على أشياء يرى أنها تستحق الإطراء .

ومن هنا نستطيع أن نؤكد أنه لم يختص حكم محمد على بنقده ، لخصومة بينهما ، كما يقول بعض المؤرخين . بل كان يقول فى محمد على ما يعتقد أنه حق ، كما كان يقول فى أصدقائه مثل ذلك . وقد ذكر أنه حين ألف تاريخه لم « يقصد بجمعه خدمة ذى جاه كبير ، أو طاعة وزير أو أمير . ولم يداهن فيه دولة بنفاق . أو مدح أو ذمّ مباين للأخلاق لميل نفسانى ، أو غرض جسمانى » وقد لازمته هذه الشجاعة والأمانة حقًّا فى جميع ما كتب وسجل من حوادث عصره .

وقد كانت هذه الشجاعة والأمانة سببا لشقاء كبير لقيه المؤرخ الشيخ فى آخر حياته ، كما نرى بعد قليل .

وهـذا مظهر من مظاهر الشجاعة النادرة التى اتصف بها الجبرتى ، ولازمته حياته كلها . حتى فى أشـــد الظروف والأحوال قسوة ومرارة وعنتاً .

رائد القومية المصرية :

وحياة الجبرتى وتاريخه يجب أن ينالا ، فى هذا العهد خاصة عهد الثورة والحـكم المصرى الخالص ، أضعاف مالقيا إلى اليوم من عناية . ويكفيك من حياته أنه قتِل ، أو قتل ابنه ، غيلةً فى عهد محمد على ، لأنه كان أمينا على مصريته ، صادقا فى تصوير ما لقيت هذه القومية عن عنت وظلم ومحنة على يده . مسجّلاً كل ما استطاع أن يسجل ، بأمانة وتفصيل ، إحساساته نحو هـذا البلاء الذى لقيه شعب مصر من محمد على . والوقائع، أو ما علمه من الوقائع ، التى أثارت عنده هذا الإحساس .

فالجبرتى هو رائد القومية المصرية الحديثة . نقرأ تاريخ مصر منذ عرفها التاريخ ، فنراه كله تأريخاً للملوك والوزراء والعمال والولاة والعلماء وما جرى من الحروب والغزوات والوقائع . حتى ابن إياس ، وهو المصرى الذى سجل تاريخ مصر إلى الفترة التى بدأ بعدها الجبرتى ، فـكان

أقرب المؤرخين إليه زمناً ووشيجةً وآصرة ، حتى ابن إياس لم يشذّ عن سابقيه .

ولكننا نقرأ الجبرتي ، فنجد — إلى جانب التاريخ الصحيح — العاطفةَ المصريةَ الصادقة — ماعدا فترة الحملة الفرنسية — ونجد مصرياً صميما مخلصاً يغضب لما يقع على قومه من الأذى ، ويثور ، ويسجل ثورته ، لما ينالهم من ظلم الأتراك أو المماليك . ويغضب أيضاً لما يجد عند قومه أوعند بعضهم من التخلف والجهل والتمسك بالخرافات والأباطيل . أومايجد عندهم من ضعف الخلق . فهو يكتب ، ويسجل ويؤرخ ، ولكنه يوجّه ويوحي ويؤدِّب ويزجر .

وعند الجبرتي وحده ، دون المؤرخين جميعاً ، نحس أننا نعيش في بيئة مصرية خالصة . نجد الأسماء ، والأماكن ، والعطفات والدروب ، التي لانزال نرى كثيراً منها ، ونسير في كثير منها في القاهرة وغيرها من المدن ، وعندما نقرأ له وهو يحدثنا عما جرى من هذه الأسماء ، أو بين هذه الأماكن ، من حوادث ووقائع ، نجد كأننا عدنا بالتاريخ ، أو عاد بنا التاريخ ، إلى حيث نعيش بين هذه الأماكن والرجال . ونشهد بأعيننا وعواطفنا هذه الوقائع والأحداث .

وعنده وحده ، نجد التعابير المصرية الخالصة والأمثال المصرية البحتة ، التى خلقتها البيئة المصرية ، وأنبتتها عواطف قومنا وأخلاقهم ونظرتهم للحياة والأشياء . ونجد عنده وحده تراجم طائفة كبيرة من عامة الناس وأوساطهم . بل سوقتهم . وهى تراجم لها أهمية كبرى فى فهم أسرار الحياة المصرية ، ودراسة القومية الذاتية لشعبنا ، وما فيه من خصائص ، وما يؤثر فيه ويوجهه من عواطف ومؤثرات . وكيف يتأثر بها ، وإلى أى مدى يتأثر ، ويحكم .

وعنده كذلك ، نجد تفصيل شىء كثير من هذه الثورات ، أو الهبات التى هبتها شعب مصر فى وجه حكامه الظالمين ، من الأتراك والمماليك . وتفصيل كثير من هذه الثورات العاتية ، التى ثارها شعبنا على غزاته الإنجليز ، وفاتحى أرضه الفرنسيين . وهو لم يسجل فى ذلك مواقف المكافحين من سادة القوم وزعمائهم ، كالسيد عمر مكرم ، والشيخ السادات وغيرهما . بل سجل مواقف رائعة من البذل والبطولة والشجاعة والتضحية ، لقوم من « أولاد البلد » فى القاهرة وأبناء البلاد فى الأقاليم .

والجبرتى يسجل حوادث الأيام ، على الطريقة التى يعرفها أهل عصرنا اليوم « بالمذكرات » . يقيد وقائع كل يوم فى « جذاذات » أو « طيارات » كما يسميها هو . أو « يوميات » ، كما يسميها الناس . وكان يريد أن يراجع

هذه اليوميات ، وينسقها ليجعل منها كتاباً يقرأ . ولكنه مات قبل أن يفعل ذلك . ونحن نحمد الله على أنه لم يفعل . لأنه لو راجع ونسق . لكان من المرجح أن يهمل شيئاً كثيراً مما كتب، ولفقدنا بذلك أشياء ذات قيمة كبيرة فى تاريخنا . وقد انفرد الجبرتى بتدوين فترة منه ، لم يسجلها أحد سواه .

ولكن كتابه جاء ، بهذه الصورة ، أشبه شىء بصحيفة يومية ، تسجل الحوادث الواقعة بلا ترابط ولا توحيد أو تأليف . فترى الرجل أو الحادث ، يذكر فى موضع من الكتاب . حسبما تجىء به ، أو بها ، المناسبة . ثم يذكر الرجل ، أو الحادث ، ، مرة بعد مرة لمناسبة أخرى ، وفى يوم آخر .

لذلك يجد القارىء مشقة بالغة ، وعسراً شديداً ، وعناءاً ما بعد عناء . فى جمع هذه الشوارد ، وربط الحوادث بعضها إلى بعض ، والتأليف بين الوقائع حتى يجعل منها تاريخاً متآلفاً متناسقاً . وقد ظللت أربع سنوات أقرأ « عجائب الآثار » هذا ، وأراجعه . وأجمع الحوادث والتراجم بعضها إلى بعض . حتى استطعت أن أجعل منها تاريخاً لم أرضَ عنه كل الرضا . على رغم ما لقيتُ فى ذلك من المشقة والعسر والعناء الشديد . وعلى رغم ما لقى كتابى هذا من التقدير والثناء .

وتاريخ الجبرتى سجل حافل ، رائع ، صادق ، لحوادث السنين التى أرخها . لم يترك جليلا ولا صغيرا رآه أو سمعه ، إلا ذكره . فهو يترجم للماليك ، ولآخر أيامهم ورجالهم . ولشيوخ الأزهر . والولاة ، والعلماء ، والأشراف ، والتجار . ويترجم لخفير باب زويلة ، والخياطين ،والأولياء ، والصناجق ، وخادم النعال فى المشهد الحسينى ، وللشعراء والكتاب . وقد سجل صوراً رائعة للحياة الاجتماعية والفكرية فى عصره . ثم يترجم للشيخ المجذوب الصاحى — وكان حمّالا فى دمياط — وللدجالين ، ومدّعى النبوة ، ويذكر أسعار الغلال ، واللحم ، والسمن ، والذهب ، والتمر ، واللبن ، والفحم والحطب . ووقوع الأوبئة والطواعين ، وعمارات المساجد والبيوت ، ويذكر الفيل الذى دخل القاهرة من الهند ،ويفصّل حادث « الشيخ صادومة » بما فيه من خروج على ما تواضع عليه الناس من حياء وأدب وتحرّز : ويروى من شعر الشعراء فى عصره قدراً كبيرا مما نسميه « بالأدب المكشوف » . ولكنه يصوّر حياة المجتمع فى القاهرة فى أصدق صورة وأبرعها وأقواها . ويزيد من قيمتها أن حياة هذا المجتمع التى نعرفها ولا نزال نشهد بعض ظواهرها إلى الآن ،قد بدأت تُغير عليها وتمحوها ظواهرُ الحياة الأوربية الحديثة . فأصبحت — وهى قطعة من صميم حياتنا وماضينا — نكاد لا نعرفها ولا نميّزها .

وقد سجل الجبرتى ذلك كله وهو يقول : — « إنى لم اخترع شيئاً من تلقاء نفسى . والله المطلع على أمرى وحدسى » ويقول : « لا أكتب حادثة حتى أتحقق صحتها بالتواتر والاشتهار » .

ونحن نستطيع أن نطمئن كل الاطمئنان إلى أمانته العملية والتاريخية .

ويقول بعض مؤرخيه إنه وضع فى آخر حياته كتابا عن الثورة اليونانية .

وهذا يدلنا على أنه كان يتابع أحداث عصره الخارجية ويسجلها ، كما تابع أدق أحداث عصره وسجل وقائعها وتفاصيلها وأسرارها .

هذا بعض ما يجده المؤرخ السياسى ، أو القومى ، عند الجبرتى . ويجد مؤرخ الأدب فوق ذلك ، كثيرا من تراجم الشعراء المصريين ، وكثيراً من الشعر المصرى الخالص . والنثر أيضاً . وهو إن لم يكن كله على مستوى رفيع من الشعر والنثر ، فإن فيه شيئاً لا بأس به . وشيئا يمكن أن يوصف بأنه قارب الجودة . وهذا وذاك كله ، على أى حال ، هو أدب مصر وشعرها فى فترة طويلة من حياتها ، لابد أن يسجل ، وأن يدرس وأن يعنى به أتم عناية وأحفلها . وكل هذا الشعر والنثر ، نستطيع أن نخرج منه بأشياء بالغة القيمة من الناحية الاجتماعية والقومية ، إذا درسناه دراسة علمية دقيقة . نستطيع أن نفيد ذلك حتى مما جمع من الشعر الردىء لأنه يسجل

أحداثاً مصرية ، ويترجم عن عاطفة مصرية ، ويصوّر بيئة مصرية .

أليس من الخير أن تخصص إحدى جامعاتنا المصرية كرسيّا لدراسة رائد القومية المصرية هذا .. ؟

لقد لقى الجبرتى فى آخر حياته ، إلى أن مات ، من البأساء والشدّة والمرض والحزن شيئا كثيراً . ولقى ، هو وتاريخه ، بعد موته ، شيئا كثيراً أيضا من الغمط والنكران والجحود ، لأن الباحثين والمؤرخين كانوا يتحاشونه وتاريخه ، مداراةً لأسرة محمد على ، أو خشية من بطشها .

وقد آن الأوان ليعرف لهذا الرجل حقه ، وليقدر قدره .

مؤرخ شجاع أمين :

كان الجبرتى يدين بولاء واحد ، هو ولاؤه لمصر وحدها . وهذا سرّ ما نجده من ظاهر التناقض وظاهر الشّطط فى تدوينه لأحداث عصره وتسجيله سيَر العظماء من رجاله . فهو تارة يبدو صديقا مدافعا عن المماليك، يمدحهم ويذكر مآثرهم وأخلاقهم وصفاتهم ، بإكبار وتعظيم . وتارة تراه يذمهم ويسخط كل السخط على أعمالهم وأخلاقهم وصفاتهم . وهو مع كراهته القوية الواضحة المتأصّلة لمحمد على ، يسجّل له بعض

ما أقدم عليه من عمل صالح قليل كان يرى فيه الجبرتى منفعة لمصر . وهو ، مع صدق تدينه و إيمانه ، يمدح فى مناسبات كثيرة ، الفرنسيين وقائدهم نابليون . ولكن هذا كله كان ، كما قلنا ، تناقضا ظاهريا فقط . فقد كان الجبرتى المؤرخ يقيس الأحداث والرجال بمقياس الصدق والحقيقة والخير العام . فهو يمدح للماليك ما يصنعون من خير . و يذم لهم ما يقترفون من شر . وكذلك حاله مع الفرنسيين وحاله فى كل ما كتب وسجل . وقد التزم فى مقدمة تاريخه أن يكون هذا حاله فى كل ما يكتب .

وتاريخه للكبار من علماء عصره، وخاصة للشيوخ: الشرقاوى والمهدى والسادات ، أكبر دليل على أنه صدق وعده والتزم مقاييسه العامة التى لا تتحيز ولا تتأثر بصداقة ولا خصومة ولا وشيجة . وكذلك تراجمه لكبار المماليك . وخاصة إبراهيم بك ومراد بك . فقد كان فى ذلك كله مصرى القلب والعاطفة ، يزن أعمالهم وتصرفاتهم بمقياس واحد ، هو جدوى هذه الأعمال لمصر ، والإخلاص والنفع العام فى هذه التصرفات . والمقاييس الرفيعة للأخلاق . لذلك كان شديد القسوة على العلماء .

والجبرتى يمدح ، من غير تحفظ ، أحيانا . صنيعا للفرنسيين مثلا . و يبدو لنا أن هذا كان شططا منه وجرأة على مقدرات زمنه وشعور المعاصرين له وتقديرهم للأمور والأشياء . وقد كان كذلك يوم كتبه فى واقع الأمر .

ولكنك بعد التأمل ، و بعد أن تزيل عن هذا الصنيع أو هذه الصنائع حدود الزمان والمكان والبيئة ، تجد الجبرتى على حق فى مدحه . وتجده قد جمع إلى التزام الحق ، تلك الشجاعة التى لا يستمسك بها سوى أصحاب الخلق والفضائل من الناس والمؤلفين . وأنه كان مصرى العقل حين مدح وخالف شعور قومه وارتفع عن مستوى معاصريه . لأنه كان يفكر فى خير مصر ومستقبل أحوالها وخير أهلها . ولو أنه آلم شعورهم فى إبداء رأيه وجبهم بصراحته التى لا تراوغ ولا تدارى . ولكنك عندما تقرأ الجبرتى ، تجد نفسك كأنما لم تخرج من شارع « الغورية » أو « باب الشعرية » أو « الحسينية » . تجد هذه الأحياء بمنازلها وناسها وأحداثها التى تحس أنها وقعت فى أمس قريب . وكأنك تقرأ صحيفة تسجل حوادث مصر الحقيقية « الوطنية » وترسم فى صورة قوية بارعة صادقة حياة أهلها ومجتمعهم وعواطف قلوبهم وانفعالات نفوسهم حيثما وجدوا من كل بيئة وطائفة ، من « أولاد البلد » ، إلى العلماء والمماليك والحكام والنساء ومجاورى الأزهر وخدم المساجد و « مجاذيب » الأولياء وأبطال الشعب الذين أذاقوا أعداء وطنهم من الفرنسيين والإنجليز والأتراك أشد البلاء وأنكاه .

وتجد عند الجبرتى ما لا تجد عند غيره من الألفاظ والتعابير

والاصطلاحات المصرية الخالصة التى لا نزال نسمع وننطق بشىء كثير منها إلى الآن . نجده يتحدث عن « خطّتنا » بالصنادقية . وأن النار فيها « رعت ووجّت » وأن النيل « انهبط » وسعر القمح « شطَح » وثارت « كرشة » أى قام زحام وتدافع . وأن فلانا « قشلان » أى مفلس « ويتحنْجل »فى مشيته . وزاد « تنطيط » الأولاد . و « رقرَق» له أى تأثر وعطف . وشىء كثير من مثل ذلك . كما نجد فى صفحات كتابه الكثيرة أمثالا مصرية عريقةً خالصة لا نسمعها فى غير مصر . ولا فى غير أوساطها الشعبية العريقة وحدها . نجد مثَل « قارب شيحة الذى يأخذ المليح والمليحة » ونجد أصل قصته ومضربه . كما نجد المثل المصرى « كل الوقايع زلابية » . فأنت فى كل قصة وحادثة وصفحة تحس إحساساً قوياً بتلك الروح المصرية المسيطرة وذلك الطابع الوطنى القاهرىّ بكل مميزاته وخصائصه . تجد ذلك فى الحادثة والقصة والترجمة والشعر والأسلوب أيضاً كما رأينا .

صورة فترة من الزمن :

سجل الجبرتى حوادث الفترة الأخيرة من القرن الثانى عشر الهجرى ، وأوائل الثالث عشر . وكان فى تدوينه لهذه الحوادث مؤرخا

من الطراز الأول . يشاهد ويرى ويسمع من أبيه وشيوخه وأصدقائه . ثم يدوّن ويقيّد يوما بعد يوم . ولا يكتفى بالمشاهدة والسماع . بل يتحرى ويبحث ويقابل . ويقصد إلى المساجد والقبور ليراجع ما كتب على الأبواب والحوائط وشواهد القبور من التواريخ والأسماء والحوادث . حتى يطمئن إلى ما سمع قبل أن يضمّنه كتابه . وهذه الفترة التى يسجل الجبرتى تاريخها عما شاهد بنفسه أو سمع عن شيوخه وأصدقائه وأصدقاء أبيه ، وعما شاهد وراجع من الوثائق والكتب ، تسبقها فترة أخرى روى أحداثها وأرّخ لها بقدر ما مكّنته أحواله وظروفه وإمكانيات زمنه .

لذلك نجده يؤرخ من حيث وقف ابن إياس « ٩٢٨ هـ » وينتهى تاريخه بنهاية سنة ١٢٣٦ « ١٨٢٠ م » . وفى هذه الفترة الأخيرة خاصة نجد صورة مصر فيما يقرب من قرن من الزمان . نجد لها سجلا حافلا جامعاً دقيقاً . لم يترك أمرا جليلا أو صغيراً إلا ذكره وقيده بإفاضة وأمانة . يترجم — كما أشرنا من قبل — للماليك ، أمراء مصر ، ولشيوخ الأزهر ، والولاة والأشراف والتجار والعلماء وخفير « باب زويلة » والشعراء والخطاطين والسناجق « رؤساء الجند وحكام الأقاليم » والحمّالين والنساء والمجاذيب والمجانين . ويسجل أسعار الغلال والسمن والتمر والحطب واللحم والجبن وعمارات المساجد والبيوت والترع ووفاء النيل فى كل سنة .

أما الصورة الفريدة التى تجعل لتاريخ الجبرتى منزلة لا تدانيها منزلة ، فهى تلك التى سجل فيها حياة المجتمع المصرى عامة ، والقاهرى خاصة ، فقد تضمنت هذه الصورة ذخيرة لا تنفد ولا تقدر قيمتها التاريخية والاجتماعية. ويستطيع الفنان الموهوب أن يخرج منها عشرات القصص والمسرحيات ذات الطابع المصرى العريق الصادق الخلاب .

وقد لقى الجبرتى ، فى غير وطنه ولغته ، عناية أحفل مما لقى فيهما. ترجم كتابه إلى الفرنسية ، ونشر فى تسعة أجزاء . تضمنتها ثلاثة مجلدات ، وطبعت هذه الترجمة فى المطبعة الأميرية بين سنتى ١٨٨٨ و ١٨٩٦ ، وقام بها أربعة هم : شفيق بك منصور يكن ، وعبد العزيز بك كحيل ، وجبرائيل نقولا كحيل بك ، واسكندر عمون افندى . وذكر هؤلاء فى مقدمتهم لهذه الترجمة أن نوبار باشا هو الذى أوحى إليهم بها ، وأن يعقوب أرتين باشا كان معيناً لهم على إنجازها ، وطبعها .

وقبل ذلك ترجم ، إلى الفرنسية ، القسمُ الذى كتبه عن الحملة الفرنسية على مصر . ترجمه المسيو كاردان[1] وطبع هذا القسم ، بالفرنسية ، سنة ١٨٣٨ وهى السنة التى مات فيها المترجم . وبعد وفاة الجبرتى بثلاث عشرة سنة . وقبل

(١) كان مترجماً للقنصلية الفرنسية فى مصر ، ومات فى سنة ١٨٣٨ .

أن يطبع تاريخه ، بالعربيه ، بأربعين سنة . كما ترجم هذا القسم نفسُه إلى اللغة التركية ، بأمر السلطان سليم الثالث (١٧٨٨ — ١٨٠٨) وجعل عنوانه . « إنقاذ مصر من الفرنساوية » وطبع فى حياة الجبرتى .

وبقى تاريخ الجبرتى ، بالعربية ، محجوباً ، أو ممنوعاً حتى أذِن الخديو توفيق بطبعه . فطبع لأول مرة بالمطبعة الأميرية سنة ١٨٨٠ ، ولكن هذا التاريخ الحافل الفريد ظل — مع ذلك — مهملا مجحودا ، بسبب عسره وصعوبته التى أشرت إليها ، وبسبب عنفه فى خصومة محمد على . وإنى لأجد كثيراً من الرضى والغبطة إذ أرى الباحثين والكتاب والمؤرخين والصحافة والإذاعة ؛ بدأت تظهر شيئاً من العناية بهذا المؤرخ وتاريخه الذى صور فيه أحداث وطننا ورجاله . وحياته الأدبية والاجتماعية أروع صورة وأصدقها وأوفاها .

وإنى لأرجو أن تزيد وتتضاعف ، العناية به وبتاريخه . وسيجد الباحثون ، فى سيرته وسيرة أبيه أيضاً ، أشياء ترضى عنها نفوسهم ، كما يجدون فى تاريخه ، لو صبروا عليه ، ذخائر وكنوزاً تستحق ما يلقون فى سبيلها من مشقة وجهد . ويجدون فيه وحياً فياضاً لصور وأقاصيص تصوّر حياتنا المصرية الشعبية تصويرا رائعا خلابا .

نهاية ونهاية :

أما النهاية الأولى فهى نهاية كتاب الجبرتى هذا . فقد لقى هذا الكتاب نهاية سعيدة موفقة وتقديرا من الباحثين والعلماء فى عصره قل أن لقيها كتاب آخر ، تلقاه الخاصة فى حياته بالتقدير حتى اقتبس منه شيخ الإسلام عبد الله الشرقاوى فصلاً كاملا عن « فقهاء الشافعية » ونسبه لنفسه . وقد رأينا أن قسماً منه ترجم إلى اللغة التركية فى حياة الجبرتى و بأمر من السلطان سليم الثالث ، وهو القسم الخاص بالحملة الفرنسية . وأن هذا القسم ترجم إلى اللغة الفرنسية وطبع بعد موت الجبرتى بثلاث عشرة سنة فقط ، ثم ترجم الكتاب كله بعد ذلك إلى الفرنسية فى تسعة أجزاء وطبع فى نهاية القرن الماضى ، ولقى تقديرا من نوع آخر ولكنه شهادة ما بعدها شهادة على قيمته وخطره . فقد جرع محمد على مما كتبه الجبرتى فى سيرته فحاول أن يترضاه ويرشوه — كما ترضى صديقه الشيخ حسن العطار ورشاه — فعرض عليه إمامة قصره فى شبرا ، فأبى الشيخ عليه ذلك ، كما يقول بعض مؤرخيه . وأراد محمد على أن يحبط عمله ، فأمر شيخ الأزهر ، الشيخ محمد العروسى ، بأن يكلف أحد العلماء كتابة تاريخ يعارض به تاريخ الجبرتى . فكلف الشيخ خليل الرجبى الشافعى بأن يكتبه ، فكتبه

مدحاً كله فى محمد على و إشادة بذكره . وكذلك لقى تاريخ الجبرتى تقديرا من هذا النوع من أسرة محمد على بعد ذلك ، فقد ظل الكتاب محجوبا أوممنوعا من الطبع حتى أذن توفيق بطبعه كما رأينا . وقالوا إنه لم يأذن بطبعه إلا بعد أن حذف كثيراً مما سجله فى سيرة محمد على .

أما النهاية الثانية فهى نهاية الجبرتى نفسه ، وهى نهاية جديرة بهذا البطل . فقد ذكر كثير من المؤرخين أن محمدا عليًّا اختاره إماما ومؤقتا للصلاة فى بلاطه — وإن كان هولم يذكر ذلك — وقد كان محمد على يرمى بذلك إلى غايتين . أولاهما أن يستميل إليه هذا المؤرخ ويترضاه بالمال والقربى ، والثانية أن يرقب أعماله وتصرفاته . ويتحايل حتى يرى أو يسمع شيئا مما كتب عنه ، وكان الناس يتناقلون أنه ينقده فيما يكتب ، ونقل إليه صهره محمد بك الدفتار ، أن الشيخ حقًّا كتب فيه ما لا يرضيه ، وأنه يستطيع أن يجىء إليه ببعض ذلك .

جريمة محمد على

وفى ليلة ١٧ رمضان « ليلة القدر » من سنة ١٢٣٧ — ١٨ يونيو ١٨٢٢ م — كان الشيخ عائداً من قصر محمد على فى شبرا ، وكان الطريق

بينه و بين القاهرة طويلا غير مأهول، فخرج عليه جماعة من الناس فأمسكوا به وخنقوه، ثم أنزلوه من فوق حماره ور بطوه بقدمَى الحمار ، فلما أصبح الصباح رآه الناس وعرفوه ، وكانت إلى صدره دفاتر مكتوبة «واصطرلاب» لرصد النجوم والكواكب ، وقال الناس إن قاتليه كانوا من رجال محمد على ، ومن المصادفات الغريبة أن هذا التاريخ هو الذى أسقطت فيه الثورة أسرة محمد على ، بعد مائة وإحدى وثلاثين سنة .

ويقول بعض المؤرخين ، الذين يريدون تبرئة محمد على من قتله ، إن الذى قتِل هو ابن له كان اسمه « خليل » ، ولكن ذلك لا يغنى شيئاً . فهم يقولون إن الشيخ المؤرخ حزن على ابنه هذا حتى ذهب بصره ، ثم توالت عليه الأسقام والأوجاع حتى مات ، فهو إذا لم يكن قد قتل بالخنق فى رأيهم ، فقد قتله الحزن على ولده الذى قتله رجال محمد على ، ونكون — إذن — أمام جريمتين ، لا جريمة واحدة .

وقد أصيب الجبرتى ، بموت ابنه الأكبر على هذه الصورة ، وهو بين المرض والكبَر والضيق ، بنازلة حطّمت حياته . وكان بيته ، كما رأينا من قبل ، قد احترق قبل ذلك وحرقت فيه المكتبة العظيمة الحافلة التى التى خلّفها أبوه . فترك الكتابة والتأليف، وانقطع عن القراءة ، وألحّ عليه

الحزن ، وأكثر من البكاء حتى ذهب بصره . وبقى فى داره مريضة حزينا أعمى ، حتى مات سنة ١٢٤١ « ١٨٣٥ » وأعقب بنتاً عاشت من بعده فقيرة مغمورة . وولدا أو ولدين على خلاف بين المؤرخين .

وهكذا كان انتقام محمد على الغادر من بطلنا المصرى الشديد المراس الملحّ فى خصومته وتجريحه وتسجيل آثامه .

ومحمد على له كل العذر — فى تقدير عصره وعُرْفه — فى أن يصطنع كل حيلته وكيده ليخفى تلك الصورة المحزية المخزنة التى رسمها له الجبرتى، والتى سجل فيها ، بأمانة وصدق ، تاريخ الفترة الأولى من حكم محمد على . وتلك المحاولات والمداهنات والآثام التى أقدم عليها واقترفها ليصل إلى الانفراد بحكم مصر ولينتزع السلطان من أيدى المماليك والعثمانيين ، على أن يكون لأهل مصر . فلما انتزعه كان له وحده . ولم يرَ أهل مصر منه إلا القسوة والشرّ والزراية .

ولكن الخصومة الحادة التى نراها عند الجبرتى نحو محمد على ، ليس مردّها عاطفة كراهة شخصية له . بل مردها أن الجبرتى كان غير موزّع القلب بين وطنه وقومه ، وبين أصحاب السيادة والسلطان فيه . كما كان كثير من كبار عصره .

بطل لم ينل حقه من التكريم :

وقد مرّت ، قبل سنوات ، ذكرى مولد هذا البطل المصرى العظيم ، لمرور مائتىْ سنة عليها . وأرى أننا لم نوفه حقّه ولا بعض حقه فى هذه الذكرى .

وأعتقد أن الفرصة ما تزال قائمة ، بل هى قائمة ملحّة فى إلزام جمهوريتنا العربية ، وشعبِها أن تمجد ذكراه وتحيي سيرته ، لعلها أن تعوض عليه وعلى من بقى من أسرته بعض ما لقى من شقاء ومحنة فى عهد أسرة محمد على ، فقد كان، كما رأينا، أعنف خصومه وأشجعهم وأثبتَهم فى هذه الخصومة ، وأصبرهم على بلائها .

هو بطل من أبطال مصر الذين كافحوا الظلم والطاغوت ، ولعله كان أوّلهم جميعاً فى العصر الحديث . وهو كذلك مؤرخ من أعظم المؤرخين وأصدقهم . وقد كان ، من غير شك ، أسبقَهم جميعا فى تسجيل تاريخنا المصرى الخالص بكل أمانة وبراعة ومقدرةٍ وإخلاص. حتى سمّىَ بحق : « مؤرخ القومية المصرية » .

وكل دعوة للإشادة بالجبرتى . والتذكير به . و بالأحرى لدراسة

تاريخه . هى دعوة من أكرم الدعوات وأبرّها بمصر وقوميتها وعروبتها . وخاصة فى عهد الثورة .

وليس برّ هذه الدعوة آتياً من الناحيه العاطفية وحدها ، فإن الجبرتى يعتبر مثلاً من أشرف الأمثلة للرجولة وقوة العقيدة وصلابة الإيمان وشرف الكفاح فى سبيل الرأى والحق حتى الموت . كان صديقاً حميماً لكبار المماليك ، وكذلك كان أبوه من قبله أثيراً عند على بك الكبير ، ومحمد بك أبو الذهب وأمثالهم ، ولكن المؤرخ الأمين ، لم يعفِهم وأمثالهم من النقد ، وتسجيل الأخطاء والآثام التى كانت تقع منهم . وكان فى استطاعته أن يكسب صداقة محمد على ، وأن ينال من ماله وجاهه ما يشاء . كما فعل صديقه الشيخ حسن العطار وغيره من كبار العلماء ، ولكنه سجل الشرور التى ارتكبها محمد على فى أول حكمه . وذكر فى سيرته وسيرة ابنه ابراهيم عجائب من الظلم والغدر والقسوة تحار فيها العقول . وظل يسجل ذلك ويدوّنه حتى مات . مات قتيلا بيدرجال محمد على — كما يقول بعض المؤرخين — أو مات كمداً وحزناً على ابنه الشاب خليل ، الذى قتله رجال محمد على باعتراف مؤرخيه ومؤرخى « العائلة الخديوية الفخيمة » .

وقد وجدتُ — وأنا أدرس تاريخ الجبرتى وتاريخ مصر فى القرن

الثامن عشر — أن كتابه «عجائب الآثار» هو المصدر الوحيد الذى استطعت الاعتماد عليه فى تسجيل السنوات السبع عشرة الأولى من حكم محمد على . المصدر الوحيد الذى يذكر بأمانة وتفصيل كثيرا من الشرور والفجور ، الذى مارسه محمد على و إبراهيم فى حكم مصر . وقد سجل ذلك مما شهده بنفسه . أو سمعه من المحدثين الثقاة .

وما حفظه لنا الجبرتى من صورة الحياة الاجتماعية والفكرية لوطننا فى القرن الثامن عشر . لا نجد له نظيراً على الإطلاق . فى كتاب آخر . لا فى كمه ولا كيفه . وكذلك ما كتبه عن السنوات الثلاث التى أقامها نابليون وجيشه فى مصر . وأثر ذلك فى حياة المجتمع المصرى .

لقد كان الجبرتى أول الثائرين على محمد على وأسرته ، ولقى فى ذلك محن الحياة كلها ، حتى الموت . ولقى كتابه من المصادرة والتشتيت شيئا كثيراً من عهد محمد على حتى حتى عهد توفيق . فمن أجدر من صاحب هذه السيرة وهذا التاريخ بأن يكرمه عهد الثوره التى أنهت حكم هذه الأسرة واسقطتها من حساب الوطن ومن حساب الزمن . . . ؟

بطل تحت قلعة الجبل

[بعض المؤلفين وبعض النقاد يعترض على كتابة المسرحية باللغة العامية ، وبعض المؤلفين والنقاد يرى أن المسرحية تمثل وتشاهد ، ولكنها لاتقرأ . ولكنى كتبت هذه المسرحية بالعامية ، وأنشرها لتقرأ كتجربة] .

الأشخاص

المعلم حجاج	: رجل فى حدود الأربعين ، قوى تبدو عليه مظاهر الشجاعة والثقة بالنفس، نظيف الثياب .
المعلم خليل	: رجل كبير السن ، هادىء ، تبدو على وجهه مظاهر الطيبة والإخلاص واليقظة.
المعلم مسعود	: فيه ثورة هادئة ، ولكنها دائمة مثابرة .
المعلم نصر	: فيه ذكاء وحيلة وحيطة .
الشيخ دردير	: شيخ كبير السن له سمت ووقار .
الشيخ شعراوى	: شيخ متحمس متوسط السن .
المعلم عصفور	: شاب شديد التحمس مندفع .
الحاج شابى السكاكينى	: جبان منافق متردد .
عوض	: خفير وجاسوس للأغا .

الفصل الأول

[دكان خضرى على ناصية شارع ضيق بحى الرفاعى بالقاهرة فى القرن الثامن عشر ، له بابان ، يجلس داخل الدكان ، على دكة ، رجل ضخم الجسم ، نظيف الثياب ، فيه هدوء ومهابة ، وثقة بالنفس .

يقف إلى جانبه ثلاثة رجال من معاونيه . و الجميع يرقبون الصبية وهم يدخلون من الباب الآخر إلى الدكان أقفاص الخضر من الكوسة ، والطماطم ، والملوخية وغيرها]

الوقت : فى الصباح المبكر .

يدخل أحد المعاونين وهو يقول :

صباح الخير يا معلم حجاج ، صباح النور يارجالة . ماشاء الله ، نحمد ربنا على خيره ، أنا شايف السنة دى الوارد من الأرياف كتير . والخضار صاحح ، وخير ربنا كتير .

المعلم خليل : والله ياجماعة الوارد كتير ، والدنيا بخير ، حتى قلوب الناس

اسة برضه ربنا ممنعشي منها الخير . وأنا جى دلوقت للمعلم حجاج ، فتّ على بيت اخونا المرحوم الحاج امبابى ، قلت أمر على أولاده مساكين أطمئن على حالهم . أمّهم مسكينة مات راجلها وساب لها سبع عيال مفيش حدمنهم بيتكسّب قرش . وكنت جايب للأولاد شمامتين ، قلت آخد لهم رخرين حاجة . والله ياجماعة أنا فرحت ، وحمدت ربنا لما شفت الأولاد لابسين نضيف ، وصحتهم كويسة ، كإن أبوهم مامتش . وقالت لى أمهم إن الدنيا بخير . وإن الولد الصغير أخده الحاج نوّار العطار فى دكانه ، يعلمه ويدّيله كل يوم خمسة بارة . والحاج نوار ، الله يبارك له ، يدّى الولد كل آخر نهار بقجة لبقيه العيال . يوم فيها قمح ، ويوم فول ، ويوم لوبية ناشفة ولاّ رز ، وبعض أيام رطلين لحمة ، والله يا جماعة فرحت قد إيه لما لقيت ولاد أخونا الحاج امبابى مستورين والحمد لله ، أصحاب أبوهم ما بينسهومش أبداً .

المعلم مسعود : الدنيا بخير يا جماعة ، وقلوب الناس مليانة رحمة . بس .

الراجل اللى قاعد فوق دا ، ومش راضى ينزل دا راح
ينْزَع الرحمة من قلوب الناس ، و يوقّعها فى بعض .

المعلم نصر : قصدك مين . . ؟ الباشا اللى فى القلعة ، ! . . . . ؟

المعلم مسعود : أيوه . هو فيه غيره . مفيش يا جماعة حدّ قادر عليه . . . ؟
أمال احنا رجّاله ازّاى . . ؟ والله دا عيب علينا .

(يدخل شيخ معمم كبير السن له سمت ووقار)

المعلم نصر : أهو سيدنا الشيخ دردير هو اللى عارف الأخبار . و يحكيلنا
اللى حصل من الراجل دا ، اللى عمّال بيظلم فى الناس ،
وما يتقّيش ربنا .

المعلم حجّاج : يا ولد يانص · كرسى وقهوة لسيدنا الشيخ .

(يجلس الشيخ إلى جوار المعلم حجاج)

المعلم خليل : إيو لله يا سيدنا الشيخ . قول لنا إيه اللى عملوه المشايخ مع
الباشا فى القلعة .

الشيخ دردير : والله اللى حصل إن أسيادنا المشايخ والسيد عمر مكرم ،
لما رفض الباشا إنه ينزل بناء عن طلبهم ، اجتمعوا فى بيت

القاضى واتفقوا على إنهم يتخلصوا منه بالقوة . ويحرّضوا الناس عليه . والباشا بعت جواسيسه يعرفوا المشايخ بيعملوا إيه . فلما بلّغوه إن بيت القاضى مليان بالعلما والناس ، والعالم كله معاهم . أرسل نائبه يدعوهم للحضور عنده . ولكنهم رفضوا . وخرج نايب الباشا والناس وراه تهلل ، وتشتم وترميه بالحجارة وهو خايف منهم ليقتلوه . وبعد كده بيوم اجتمع المشايخ مرة ثانية وقرروا إنهم يخلعوا الباشا . وذهب بعضهم له يبلغه القرار . فغضب عليهم جداً وقال لهم أنا متولّى من قبل السلطان ولا أعزل بأمر الفلاحين .

المعلم مسعود : الله أكبر . الفلاحين يعنى اللى هم احنا . . !

المعلم خليل : وبعدين إيه اللى جرى ياسيدنا الشيخ دردير . . !

بعد كده المشايخ كلهم غضبوا ، والناس كلهم اجتمعوا جهة سيدنا الحسين والأزهر وحارة الروم والخرنفش ، وبيت القاضى مبقاش سايعهم والشوارع اللى حواليه . حتى القاضى خاف وبعت لخورشيد باشا إن عنده أكثر من

أربعين ألف . كلهم عايزين يحاربوه . وان أحسن له ينزل من القلعة . وادينى تركت المشايخ فى الأزهر بيأمروا الناس يستعدوا للحرب ، وكلهم بيتحضّروا معاهم . لأجل يحصروا الباشا فى القلعة و يحاربوه .

المعلم خليل : ربنا يصلح الحال و يروق بالنا .

(يدخل شيخ متوسط السن يبدو عليه النشاط والفتوة)

الشيخ دردير : أهو الشيخ شعراوى كل ليلة يصلّى العشا فى الحسين ولازم كان هناك . يحكى اللى حصل بعد كده امبارح .

الشيخ شعراوى: اللى حصل بين الباشا والفلاحين . . ؟

الجميع : (ماعدا الشيخ دردير) أيوه احكى لنا .

الشيخ شعراوى: حصل إن المشايخ والسيد عمر ومعاهم المعلم جرجس الجوهرى اتفقوا على حصار القلعة . والناس كلهم بينزلوا على بركة الأزبكية ببنادقهم ونبابيتهم . واللى معندوش يبيع أى حاجة و يتسلّح . كلّ الخلق من الحسينية والعطوف والأزهر

والصليبة والقـــرافة بيتجمعوا فى بركة الأزبكية وزىّ
ما يأمرهم المشايخ يعملوا . حتى المشايخ متسلّحين .

المعلم مسعود : أمال احنا قاعدين ليه . جرى إيه يامعلم حجاج . . ؟ دانت
كبيرنا وشيخ الخضرية كلهم . شهم وشجاع وراجل .
ساكت ليه . . ؟

(يقوم الشيخ دردير يتبعه المعلم نصر والشيخ شعراوى)

المعلم حجاج : (يناديه) ياسيدنا الشيخ دردير .
(وينفرد به جانبا وهو يقول له)

: أنا راجيك فى حاجة . فى طريقك بيت المرحوم امبابى .
من غير تكليف توصل لأولاده الأمانة دى . ويعطيه
شيئا من المال .

الشيخ دردير : الله يكرمك يامعلم حجاج ويوسّع عليك . والله أنا كان
عاوز أشوفهم .

(يخرج الجميع ماعدا المعلم مسعود . فيأخذه المعلم حجاج
إلى داخل المحل ويقول له)

: بتقول انّ احنا ساكتين . مين قال لك ان احنا ساكتين؟

المعلم مسعود : وأنا فين أمّال .. ؟ دانا راجلك وبايع روحى وحياتى فى الراجل اللى اسمه الباشا ... !

المعلم حجاج : انت عايز تشتغل معانا . ومستعد تموت ... ؟

المعلم مسعود : وهو فيه أحسن من إن الواحد يموت شهيد . وتنكتب له الجنّة . ويدافع عن شرفه وشرف بلَده .

المعلم حجاج : معاك كام راجل عاوزين يموتوا ... شوف كده وتأكد منهم وتعالى لى ليلة السبت ، بعد ثلاث أيام .

الفصل الثانى

[قلعة القاهرة . الوقت بعد الغروب . القلعة مغلقة الأبواب ومن أبراجها يرى بعض الجنود الأتراك فى أيديهم البنادق . وعلى سورها يظهر عدد من المدافع موجهة فوهاتها نحو القاهرة .

حول القلعة يقف بعض الحراس المصريين فى جماعات قليلة متباعدة فى أيديهم البنادق وهم يرقبون الطريق إلى القلعة]

أحد الحراس المصريين يحدث زميله : الفرج قرّب ... كلها يومين والباشا النَّحْس خورشيد يسلِّم ويخرج من القلعة .

الحارس الآخر : ربك كريم . يمكن ولا حتى يومين ، داالجوع والعطش حيخلّوه غصب عنه يخرج . قرّب على خمسين يوم دلوقت مقطوع عنه كل حاجة .

الآخر : كل شدة وتهون . إحنا كان لازم نستحمل السهر والبرد علشان مافيش حاجة أبداً تدخل القلعة .

[يشاهد الحراس فتاتين فى ثياب الفلاحات تتجهان إلى القلعة وهن يحملن على رأسهن شيئاً . أحد الجنود يرفع بندقيته وهو يصيح محدثا زميله] :

البنتين دول معاهم حاجات عايزين يدخلوا بيها القلعة ..!

زميلهم : سيبهم ملكش دعوة بيهم .

الآخر : دول لازم معاهم ميّة والا حاجة بيبعوها للعساكر بتوع خورشيد جوّة القلعة .

زميله : سيبهم بقولّك . إحنا عارفين ومرتبّين كل حاجة . وهما داخلين القلعة زى ما انت فاهم نزّل بندقيتك وانتبه للطريق. فيه حد خارج من باب القلعة .. ؟ بصّ كده كويس . . !

[يفتح باب القلعة ويقفل بسرعة . ويظهر على بابها جنديان تركيان يسيران ببطء ، يقترب الحراس من الجنديين ويحاول أحدهم أن يصوب عليهما الرصاص ، فيقول له زميله]

: متضربْش . . ! دول من غير سلاح . استنّه لما نشوف عايزين إيه وخارجين ليه .

[يقترب الحراس من الجنديين فيقول هؤلاء لهم ، فى لهجة تركية ، ويبدو فى صوتهما الضعف والخوف]

: ميّة . . ! ميّة يامسلمين . . !

[يضحك الحراس المصريون ويقول لهما واحد منهم]

: الجوع والعطش خلاّكم تعرفوا إننا مسلمين ؟ ! لما كنتم تقتلوا فينا وتعرّوا النسوان من هدومها وسيغتها وتضربونا بالكرباج ، مكنّاش مسلمين . ؟ !

[يهم أحد الحراس بأن يضرب جنديا من الأتراك على رأسه بكعب بندقيته ، فيمنعه زميله ويقول لهما]

: إحنا نديلكم مية على شرط تقولوا لنا الباشا بتاعكم جوّة ازىّ حاله ورجالته .

[يبدو على الجنديين أنهما لم يفهما الكلام ، ويزيد خوفهما . ثم يقولان مرة أخرى ، وهما لا يكادان يستطيعان الوقوف]

: ميه . . . احنا مسلمين...

[أحد الحراس يقول لزملائه]

: نموّتهم ونخلّص عليهم .

آخر : لا . أبدا ، دول لازم يروحوا للمعلم حجاج يسألهم و يصرّف فيهم هو والسيد عمر مكرم ، السيد عمر يعرف يتفاهم معاهم.

يشير لزميله قائلا

: إنت و بدوى تاخدوهم حالاً للمعلم حجاج ورا القلعة . إنت عارف هوّ فين .

[يسير الحارسان وقد أمسكا الجنديين التركيين يقصدان بهما الجهة الخلفية للقلعة : حارس من الحراس يلوّح عن بعد بمصباح يحركه حركات خاصة فيراه بقية الحراس] .

أحد الحراس : واحد من إخواننا فوق الجبل بيدّى لنا إشارة ، لازم عنده حاجة بيبلّغ عنها .

زميله : أنا رايح له بسرعة أشوف الحكاية .

[بعد أن يسير خطوات قليلة يقابله أحد زملائه مسرعاً ، ثم يقبل الإثنان على بقية الحراس حيث يقول القادم]

: جماعة كبيرة من الرجال والجمال جيّة من بعيد علشان تدخل القلعة . جالنا خبر دلوقت إنها فى الطريق ، الجمال أكتر من ستين جمل محملة ذخيرة وأكل وميّة .

أحد الحراس للرسول القادم : إرجع انت حالا لزملائك ، وانت ياحسنين تروح مع شحاته للمعلم حجاج بسرعة تبلغوه الخبر .

[تسمع حركة وأصوات قادمة من بعيد ، يتمهل حسنين وزميله فى السير قليلا ثم يقولان]

: دا صوت المعلم حجاج ياجماعة . ثم يستقبل الجميع القادمين ويسارعون بإبلاغهم الخبر .

[المعلم حجاج ينظم رجاله بسرعة ويفرقهم جماعات ويأمر كل جماعة بالتوجه إلى مكان معين حول القلعة ويقول للجميع]

: الجمال دى مستحيل تدخل القلعة . دى من نصيبنا إحنا ، إذا دخل منها جمل واحد راح تعبنا كله وانتصر خورشد الظالم علينا . توكلوا على الله يارجاله . أنا مع جماعتى على رأس الجبل . ثم يقول : الجماعة اللى سايقين الجمال راح يفرقوا نفسهم ، كل جماعة منكم عليها تمسك منهم اللى يحاول يوصل للقلعة من طريقها . ولازم تمسكها : الذخيرة وكل حاجة توصل لنا سليمة . . . توكلنا على الله .

[تتفرق الجماعات كل فى طريق . ويسرع المعلم حجاج إلى رأس الجبل . ويبقى بعض الحراس لمراقبة الطريق]

الفصل الثالث

[شارع من شوارع القاهرة الضيقة ، والوقت
ليلا ، يسير جماعة من الناس يتقدمهم بنحو خمسة
أمتار شخص آخر]

أحد الجماعة : مين اللى ماشى قدّام دا فى نور الفانوس . . ؟ يا معلم شمعة
يا ترى هوّه . . يا معلم شمعة .

[يلتفت الشخص المتقدم ثم يجيب . أيو الله . ثم يقف
حتى يلحق به الآخرون]

الشيخ دردير : إيه اللى جابك هنا . مصلّتْش ليه فى الرفاعى يا معلم شمعة
زىّ عادتك . . ؟

المعلم شمعة : والله هفّ علىّ أزور السيدة عائشة . واصلّى فيها العشا
والتراويح . والحمد لله صلّيت .

الشيخ دردير : طيب ياريت تقضى السّهرة معانا وتستريح شوية . واهم
ولادنا واخواتنا معانا نسهر سوا .

[يتقدم للسلام على المعلم شمعة رفقاء الشيخ دردير وهم :
المعلم خليل . والشيخ شعراوى . والمعلم عصفور . والحاج شلبى السكاكينى]

المعلم شمعة : والله قعدة حلوة على بركة الله .

[يصل الجميع إلى منزل الشيخ دردير ثم يدخلون منظرة إلى جانب الباب الخارجى فيها أربع كنبات كل واحدة عليها شلتة كبيرة ، وواحدة تزيد عليها فروة يجلس عليها الشيخ ، ويجلس الآخرون]

المعلم خليل : داحنا بختنا عال . اللى شفنا سيدنا الشيخ دردير الليلة وحتحصل لنا البركة

الجميع : أيوه الله صحيح .

الشيخ دردير : بارك الله فيكم .

المعلم شمعة : يا سيدنا الشيخ دانتا بركتنا كلنا ، ربنا ما يحرمنا منك .
هو لولا أسيادنا العلماء . . كانت بقت الناس لها قيمة .

المعلم مسعود : صحيح ربنا بينظر للناس ببركة العلم والمشايخ . لكن الناس يظهر إن مبقالهاش قيمه دلوقت . وأسيادنا المشايخ مش عارف راضيين عن كده والا إيه .

الشيخ شعراوى: والله أظن محدّش يرضى عن كده أبداً، هنّا لازم بيعمولهم ترتيب . علشان هما اللى جابو الراجل ده .

(يسمع صوت من الخارج قريب من النافذة)

يا معلم شمعة . . . عامر يا معلم شمعة . يظهر إن عندك ضيوف . دايما عامر .

المعلم شمعه : أيوه عندى سيدنا الشيخ دردير وبعض الإخوان . الدنيا صيف وسهرة رمضان حلوه .

(يبعد صاحب الصوت . ثم يقطع السكون صوت الشيخ دردير يقول :].
مين دا يا معلم

المعلم شمعة : دا الواد البصّاص عوض . حاكم الباشا محمد على عامل على كل شارع بصاص . الاسم انه يحرس الناس . وهو يوصّل أخبار للكتخدا . والله ياجماعة مبقيناش عارفين نعيش فى البلد . ياريت نسيبها زى ماسابها المعلم حجاج . نفَد بجلده .

المعلم عصفور : والله لو كان فيه عدل فى البلد . كان المعلم حجاج بقى كبير

ومسيّط فى أيام الباشـا ده . دا هوّا اللى حارب البـاشا خورشيد ونزله من القلعة .

الشيخ شعراوى: صحيح والله ياجماعة . لولا حجاج ماكانش حد قدر ينزل الباشا الظالم ده من القلعة . داناشفته بعينى بيدبّح فى عسكر الباشا زى الغنم . كان زى مَنْتو عارفين . شجاع وجسمه جامد كله عافية وقوة .

المعلم شمعة : لولا المعلم حجاج كان خطّنا ده اتهدل . قريب من القلعة والعساكر طالعين نازلين بيئذوا الناس و يقتلوهم . لكن هو كان واقف لهم . ومرّه سمع عن جماعة حاصروهم العساكر فى حى المظفّر فطار لهم برجّالته . وفضل يحارب لغاية ماقتل اكتر من نصّهم ، وهربوا بقية العساكر وطلّع بتوع المظفر من الحصار .

المعلم عصفور : دانا حاربت معاه . كان المعلم مسعود ، الله يرحمه ، صاحبى بالروح وزى أخويا . وقال لى ليلة تحب تموت شهيد ..؟ ولما فهمت منه الحكاية . قلت له أنا معاك زى متقول . ورحت معاه أنا وجدعان كتير للمعلم حجاج بالليل ، وكان واقف

مع رجالته يراقب القلعة من جهة الجبل . كان خورشيد باشا
بقى له أكتر من شهرين محصور فيها ، وكان سيدنا السيد
عمر مكرم مكلف المعلم حجاج بإنه يحط عينه وحسه على
القلعة. علشان مافيش مية ولا ذخيرة ولا أكل يطلع للباشا.
وفى يوم من الأيام . شفنا ناس كتير وجمال من بعيد
طالعة القلعة . فقام المعلم حجاج واحنا كلنا معاه وقسمنا
أقسام وقطعنا الطريق على اللى طالعين وحاربناهم وقتلنا منهم
كتير . والباقى هربوا وتركوا ستين جمل محملين ذخيرة . لما
سمع محمد على الحكاية دى . وسمع على حجاج وشجاعته
بعت له جماعة من عساكره يحاربوا تحت رياسته .وفى واقعة
يوم الجمال دى انتقل المسلم مسعود لرحمة الله شهيد ، بعدما
حارب حرب رجاله .

المسلم خليل : والله المعلم مسعود رجل بيحبه ربنا ، طلب بلسانه الشهادة
وربنا نولهاله ، هنيّاله الجنة

الشيخ دردير : أيو الله ياولادنا . مكانش حد فاكر كده أبدا . مين كان
يجى فى باله إن محمد على باشا لما يتولى . يعمل كده فى الناس
حتى المعلم حجاج اللى ساعده مساعدة يعلم بها الناس كلهم...!

المعلم شمعة : دى حتى بنته زينب والبنت اللى كان متبنّيها زى ما انتو عارفين كان بيدخلهم القلعة على إنهم بيبيعو لبن وميه لعساكر خورشيد وهمّا فى الحقيقة بيجسّسوا عليه ويوصلو أخباره لأبوهم المعلم حجاج . ومرة واحد من عساكر خورشيد كسَر دارع البنت نفيسة لأنه كان بيعاكسها فضربته قلم .

المعلم عصفور : أنا شفت بعينى ، يوم ماجه القرمان لمحمد على يكون والى مصر . المعلم حجاج ماشى قدام الموكب ، موكب هايل ، وهو رافع سيفه وجنْبه المعلم شمعة ده . وفضلوا ماشيين قدام الرقّة لما دخلو بيها بيت محمد على فى الأزبكية . والأدهى خورشيد باشا كانت مدافعه وقتها عمّاله تضرب على البلد وعلى الناس . وكان المعلم حجاج والمعلم شمعة ماشيين زى الأسود . المعلم شمعة كمان شيخ الجزارين قدّ الدنيا .

المعلم شمعه : اللى ربنا قدّرنا عليه عملناه ، والمعلم حجاج كان بطل صحيح ولما شاف الباشا محمد على بيزيد ظلمه يوم بعد يوم ساب له البلد ، وبرْضه خاف على نفسه .

[ثم يتوجه بالكلام للشيخ دردير]

إلاّ سيدنا الشيخ . إيه رأى أسيادنا العلما فى الباشا ده وأعماله .

الحاج شلبي السكا كيني: ياجماعة من خاف سلم ·
لامؤاخذه ياسيدنا الشيخ ، الحيطان لها ودان :

الشيخ شعراوى: ودان إيه وسنان إيه ياحاج شلبي · دا الباشاوات دُكْهم كان حالهم أرحم. مشفناش حد زى ده، على الأقل كانوا باشاوات كبار صحيح. ولهم مقام · لكن ده حتة شاويش محدش عارف جى منين، ضحك على الناس وقال لهم حاحكم بالعدل والشرع وادحنا شايفين ، والله حرام علينا لو نسكت على كده . مفيش كام سنة استولى يعمل كده فى الناس ...!

[يسمع من الخارج صوت البصاص وهو يقول]

يامعلم شمعة يظهر إن السهرة حلْيت ، والضيوف أحباب ، دافيه خبر كويس حقوله لكم. المعلم حجاج رجع بيته النهارده.

المعلم شمعة : ماتيجى يأخى تشرب حاجة ساقعة . وتحكْلنا . ولله خبر كويس .

الحاج شلبي السكا كيني : (بصوت مرتفع) والله الباشا بتاعنا ده قلبه طيب وكله خير ، لازم عفا عن حجاج .

المعلم شمعة : يامى عوض سيدنا الشيخ دردير بيقولك تعالى جوّه .

عوض البصاص : لا . . . معلهش . سلام عليكم ياسيدنا الشيخ . افتحوا لى الشباك بس وأنا اتكلم معاكم .

(المعلم شمعة : يفتح له الشباك) .

عوض : صحيح النهاردة المعلم حجاج رجع بيته . المشايخ والسيد عمر مكرم كلّموا فيه الباشا وقالوا له الراجل كبر وتعب ومابقاش منه خوف . والباشا قال لهم دا راجل ساعدنا كتير وأنا بحبه . وأنا بتعَجّب بيسيب البلد ليه و يغيب الغيبة الطويلة دى ، والمشايخ بعتوا له يجى . واهو دلوقت فى بيته . ماهو مالقيش فايدة من العند ، بيقولوا راح للألفى . أهو مات الألفى . وصفت الدنيا لمحمد على .

(يسمع صوت مناد من بعيد . فيترك عوض الشباك ويسير فى الطريق) .

الشيخ دردير : أنا عايز يا جماعة أزور المعلم حجاج .

المعلم عصفور : والله ياريت نروح نزوره كلنا ونهنّيه .

(يقترب صوت المنادى حتى يسمعه الجميع وهو يقول)

: يكون فى علمكم يا أهل البلد . الحاضر يعْلِم الغايب . يا أهل السيدة عائشة ، والرفاعى والقلعة . إن حضرة الباشا محمد على عفا عن المعلم حجاج وأعطاه الأمان يرجع بيته ويقعد فى دكانه زى ما كان . وبقى شيخ الخضرية زى زمان . الحاضر يعلم الغايب . حضرة الباشا أعطى المعلم حجاج الأمان يرجع بيته ويقعد فى دكان شيخ الخضرية زى ما كان) .

الشيخ شعراوى: الحمد لله . المعلم حجاج بعد ييجى سبع سنين يرجع بيته وعِزْوِته ، ويمْضَن بين عياله ..!

المعلم شمعة : دى زيارة سيدنا الشيخ درديز كلها خير وبركة وسرور .

الشيخ درديز : الله يبارك فيك يامعلم شمعة .

المعلم خليل : بعد إذن سيدنا الشيخ درديز . ياللاَّ بينا كلنا نزور المعلم حجاج ونشوفه ونهنيه .

(يقف الشيخ درديز ثم يخرج ، وخلفه الجميع) وهو يقول

: حصلت البركة ياجماعة . حصلت البركة يامعلم شمعة .

الفصل الرابع

(الشيخ دردير والشيخ شعراوى يسيران وقت العصر فيمران على محل جزارة المعلم شمعة . وهو يقفله ويتهيأ للانصراف . وعندما يمران به لا يلتفتان له . فيسرع باللحاق بهما ثم يمسك بيد الشيخ شعراوى وهو يقول) :

المعلم شمعة : يعنى ما فيش سلام عليكم ولا حاجة . . ؟

الشيخ دردير : لا مؤاخذة يامعلم شمعة . والله يابنى أنا عنيـة مش شايف بيها وفكرى تايه .

المعلم شمعة : خلاص كل سنة وسيدنا الشيخ بخير وعافية . كلها عشرة اتناشر يوم ويخلص رمضان . هو السنة دى صعب صحيح فى الحر .

الشيخ دردير : والله يامعلم شمعة مش من رمضان ولا من الصيام . دا على قدر المشقة يكون الثواب ، هو انت معرفتش اللى حصل للمعلم حجاج .

المعلم شمعة : لا والله . خير ان شاء الله . عيان والا إيه . . ؟

المعلم شعراوى: بصوت منخفض . . . ياريت . . ما قتله الظالم . . !

المعلم شمعة : لا حول ولا قوة إلا بالله (موجهاً كلامه للشيخ دردير) .
صحيح ياسيدنا الشيخ الكلام ده . . . ؟

(يقترب الجميع من بيت المعلم شمعة . وقبل أن يصلوا إليه يقول الشيخ دردير) .

الشيخ دردير : يا معلم شمعة . أنا عاوز أستريح عندك شوية .

المعلم شمعة : يا ألف أهلا وسهلا ونفطر سوا .

(يدخل الثلاثة منزل المعلم شمعة . حيث يجلسون فى منظرة مظلمة مغلقة النوافذ)

المعلم شمعة : أظن الضلمة والرطوبة كده أحسن للحر . والا تأمر ياسيدنا الشيخ أفتح الشبابيك .. ؟

الشيخ دردير : لأ كده أحسن ، خليهم .

المعلم شمعه : إيه يا شيخ شعراوى الحكاية الفظيعة دى .. ؟

الشيخ شعراوى: دا سيدنا الشيخ دردير هو اللى سمع بنفسه .

الشيخ دردير : والله أنا لى عادة فى بعض ليالى رمضان أصلى الفجر فى سيدنا الحسين .

الشيخ دردير :
والمعلم شمه : رضى الله عنه

الشيخ دردير : والليلة اللى فاتت حبيت أصلى فيه . فقلت لابنى عبد الرحمن من قبل السحور يحضّر لى الحمار بتاعى . و ييجى معايه نصلى الفجر سوا . وصلينا والحمد لله وقبل ما نخرج من المقام قرب منى واحد من أولادنا وقال لى إنه وهو جىّ من بيتهم فى الجمالية بعد السحور . شاف عند السبيل اللى فى الشارع جماعة من العسكر مكتّفين واحد و بيعلّقوه بحبل من رقبته على السبيل . فهو برضه خاف ومارضيش يقف كثير . و بعدين قبل ما يبعد سمع واحد من العسكر بيقول :

خلاص ... الرجل خُلص . و بعدين جرى واحد بسرعة جهة

واحد راكب فرس وهو يقول : — خلاص يا حضرة الأغا . حجاج خلصْنا منه .

فأنا فى الحق شكّيت . يا ترى المعلم حجاج .. ؟ محنا عارفين محمد على خاين وغدّار . رجعت قعدت فى المقام قريت جزئين قرآن . وقلت ياعبد الرحمن قوم نروّح بقا . وأنا لسه بامشى أول خطوة عند باب سيدنا الحسين . والناس داخله للصلا والزيارة والدعا . سمعنا المنادى بيقول :

« ياأهل البلد يكون فى علمكم . إن حضرة الباشا شنَق الليلة حجاج الخضرى على سبيل الجمالية . وأمر يفضل متعلّق هناك يوم بليلة . علشان غيره يعتِبر . دا جزاء اللى يخالف حضرة الباشا . ويعصى على أمره » .

(ثم يقول بعد لحظة صمت ، بصوت متهدج) .

الشيخ دردير : الله يرحمك يا معلم حجاج . لك نعيم الجنة .

« شعراى : ربنا ينزل علينا رحمته . ويلطف بعباده . والله دا هو اللى يستاهل الشنق .

(يقف الشيخ دردير ويتبعه الشيخ شعراوى متهيئين للخروج ثم يقف المعلم شمعة متثاقلا وهو يقول والدموع تكاد تخنق صوته) .

المعلم شمعة : يشنقوه كده ظلم يا ربى ..! وفى شهر رمضان ..! ربّنا ينتقم من الظالم .

[شخصية كل من المعلم حجاج والمعلم شمعة حقيقية . وجوهر الحوادث فى هذه المسرحية ثابت تاريخياً . وكان قتل حجاج بأمر محمد على، ليلة ١٧ رمضان سنة ١٢٣٢ (أغسطس ١٨١٧)].

مجاهد من الغرب

[إلى أبطال الجزائر المجاهدين ، الذين هم فى
الحياة المعاصرة . المثل الأول للشرف والتضحية
والكفاح الوطنية]

كان الأمير محمد الكيلانى ، أو السيد محمد المهدى ، يقيم فى قصره
فى مدينة درنة بطرابلس الغرب . وكان « الغرب » هذا ، أو بلاد المغرب
وطناً عربياً إسلامياً واحداً لا تفرق بينه حدود . ولا تفصل بين أرضه
حواجزُ أو سدود . كانت طرابلس وتونس والجزائر ومراكش ، وطناً
عربياً إسلامياً يسير فى أرضه السائر من حدود مصر إلى أن يلتقى بأمواج
المحيط ، فيستبدل أهلا بأهل ، وإخواناً بإخوان . وطنهم جميعا : «العربية»
ودينهم : « الإسلام » .

وكانت حياة الأمير الكيلانى هذا هيّنة ميسّرة رخيّة كريمة ؛ يقيم
صلاته ، ويرعى شؤون أتباعه ومعتقديه ؛ متمتعاً بمكانته ومنزلته من الجاه
والمحبة والسيادة والتكريم ، كما يكون الأمير والسيد والإمام . وظل

يعيش بين قومه متمتعاً بمكان الصدارة والإمارة وكرامة العلماء والسادة، والشرفاء ، ومحبة أصحاب الخلق والدين والمروءة والبر ؛ حتى ذاع فى بلاد المغرب نبأ أزعج أهلها وقضّ مضاجعهم ، وأثار غضب الأمير وحرك سخطه وغيظه ونخوَته ؛ فقد علم أهل المغرب أن جيش الفرنسيين قد طرق مدينة الإسكندرية ، وأن أهلها حاربوهم مااستطاعوا ، وبذلوا من دماءهم وأرواحهم واسترخصوها قبل أن يهزموا ؛ ولكن جيش نابليون ، أو بونابرته ، غلَبَهم ودخل المدينة فأقام فيها واستولى على مديرية البحيرة وهو فى طريقه إلى القاهرة ، وأن المصريين جميعاً يبادرون لنصرتهم والدفاع عن حرمة وطنهم وكرامة أرضهم وشرفها وقدسيّتها .

ولم يستطع الأمير محمد أن يهدأ بعد هذا الذى سمع ، فقد كانت نفسه تتميز من الألم والسخط والثورة ، ورأى الناسُ أميرَهم وإمامهم يجمع أمره ، ويجمع مايستطيع أن يحمل من أمواله ، ويقوم بينهم داعياً للجهاد والنصرة والحرب ، وكان خطيباً فصيحاً لسِناً ؛ استطاع فى وقت قصير أن يجمع حوله عواطف قومه وقلوبهم ، وأن يسلموا إليه قيادهم ليسير بهم إلى مصر لحرب هؤلاء الفرنسيين .

ترك الأمير قصره كما ترك هؤلاء المجاهدون بيوتهم وأولادَهم متوجهين.

صوب الشرق ؛ صوب مصر المجاهدة ، رغم ما بينها و بينهم من المشقات والأهوال والمعاناة .

قطعوا فى مسيرهم هذا ، الليالىَ والأيام ، يجدّون فى السير و يصبرون على هجير الصحراء وحرّها وعطشها ليبادروا لنصرة إخوانهم . وظلوا على حالهم هذه الليالى والأيام انطوال ، وأميرهم كلما لقى قوماً دعاهم إلى الجهاد والمشاركة فى الحرب فيلبّون و يبادرون .

ثم نزل الأمير وقومُه « واحة سيوة » بعد المشقة والجهد . وهناك رأوا أن يستريحوا فيها أياماً بعد ما لقوا من مشقة هذا السير الطويل .

وفى هذه الواحة التقتْ بهم جماعة كبيرة من الناس تعرّف الأمير أمرَهم ، فعلم أنهم قافلة من حجاج أهل المغرب ، فاستولى على قلوبهم بفصاحته وقوة شخصيته وصدق إيمانه و إخلاص يقينه ، حتى أسلموا إليه أمرهم ، وقبلوا — مسرور بن فرحين — أن يسيروا معه إلى مصر ، وأن يشاركوه شرف ما يسعى إليه من الجهاد ؛ وكان عددهم أربعمائة من الرجال الأشداء الأقوياء الشجعان .

أصبح للأمير بهذه القافلة و بمن كان معه من قبل جيش كبير ؛ سار به مسرعاً حتى نزل مدينة دمنهور . وكان الفرنسيون استولوا عليها وتركوا فيها حامية ترهِب أهلها وتخيفهم وتستبدّ فيهم ، وترقب الطريق إليها ومنها ؛

حتى لا يتصل المجاهدون من أهل الاسكندرية والبحيرة بإخوانهم فى القاهرة .

وكان أهل المدينة وماجاورها من البلاد والقرى يهاجمون الحامية كلما وجدوا لذلك سبيلا ، ويقتلون أو يأسرون من استطاعوا أن يقتلوا ويأسروا من جنودها . ولـكن الناس أصبحوا يوماً فلم يجدوا لهذه الحامية أثراً ، ولم يبق فى مكانها سلاح ولا رجل ؛ بل وجدوا فى مكانها آثار معركة وحطامها وأشلاء قتلاها . وعرف القوم بعد قليل أن مجاهداً من الغرب اسمه الأمير محمد قدم لنصرتهم ، وأنه هو وجنوده هم الذين هاجموا الحامية فأبادوها ، وقتلوا جميع رجالها فلم يبق منهم أحد ، واستولوا على مدافعهم وسلاحهم .

* * *

واشتهر اسم الأمير وجيشه بعد هذا الهجوم ، وتطوع للحرب معه كثيرون من الناس ، مصريين وغير مصريين ؛ حتى بلغ جيشه أربعة آلاف . ويقول بعض المؤرخين سبعة آلاف .

ورأى الفرنسيون أن لا بد لهم من القضاء على هذا الخطر الجديد قبل أن يستفحل أمره ويشتد ساعده أكثر من ذلك . فساقوا إليه جيشاً كبيراً لم يستطع أن يهزمه ، وانتصر عليه جيش الأمير المجاهد ، ولـكن هذا

النصر الذى أحرزه جيش المجاهدين كان عالى الثمن . فقد فقد منه عدد كبير ، كان أكثره من الفلاحين الذين لا يكادون يحملون سلاحاً ، بل كانوا يحاربون بفؤوسهم وعصيّهم .

فلما بلغ أمر المهدى هذا المبلغ من الخطر . قام لحربه قائدان من أبرع القواد الفرنسيين وأعظمهم شجاعة وأبرعهم دراية بفنون القتال والحرب ، وكلاهما يقود جيشاً عظيماً . وكان جيش المهدىّ قد بلغ عدده خمسة عشر ألفاً من المشاة ، وأربعة آلاف من الفرسان .

وجرت بين الجيشين معركة عنيفة طاحنة ، أبدى فيها الأمير وجيشه من أهل المغرب ومن المصريين أعظم ضروب الشجاعة والبسالة والفداء والصبر . ومع أنهم فقدوا — كما يقول المؤرخون — ألفين من الرجال ، فقد تغلبوا على الفرنسيين حتى ردّوهم وأجلوهم عن مواقعهم وساقوهم أمامهم مهزومين .

ولكن الفرنسيين أسرعوا فجلبوا كثيراً من السلاح والرجال ، وجرت بينهم و بين الأمير وجيشه معارك دامية ، كانت الغلبة فيها على جيش المجاهدين والأمير .

ثم دخل الفرنسيون مرة أخرى مدينة دمنهور ففعلوا بها وبأهلها أشد

الأفاعيل وأفحشها . قتلوا رجالها ونساءها وأطفالها ، ثم أحرقوها حتى بدت أطلالاً وحجارة سوداً ، وفرضوا على أهلها — بعد ذلك — المغارم الثقيلة الفادحة .

وبذل الفرنسيون غاية جهدهم ليصلوا إلى هذا الأمير المجاهد فيأسروه أو يقتلوه ، ولكنه غاب عنهم فى بطن الصحراء فلم يدركوه . وكان ، قبل أن يهزم ، قد طهّر مناطق فسيحة — من الرحمانية إلى رشيد — من الفرنسيين .

واستطاع الأمير محمد أن يصل إلى القاهرة . ولم يركن فيها إلى الراحة والأمن بعد هذا الكفاح الرائع الذى قام به ، بل أخذ يبذل كل ما يملك من جهد وموهبة وعزم ، ليشارك المصريين جهادهم وحربهم مرة أخرى .

ونجد فيما روى المؤرخون ، وبخاصة الجبرتى ، من تفصيل وقائع الثورة التى قام بها — للمرة الثانية — أهلُ القاهرة ضدّ الفرنسيين . نجد فيما رواه المؤرخون ذكراً لهذا الأمير المجاهد ، ونجد له نصيباً وجهداً فى الكفاح .

* * *

وقد التقى هذا الأمير بقائد من قواد الحملة الإنجليزية بعد ذلك على مصر لمشاركة العثمانيين فى حرب نابليون وجيشه .

لقى القائدُ الإنجليزى الأميرَ المجاهد فقال إنه التقى بالحملة الإنجليزية عند الرحمانية ، ثم سار معها حتى بلغ القاهرة ودخلها[1] .

ثم وصَف القائد الإنجليزى الأميرَ المجاهد فقال :

« لم يكن هذا الرجل شخصاً عادياً ، بل كان أميراً من أمراء المغرب: اسمه : مولاى محمد ، مهيب الطلعة ، نبيل النفس ، أنيق الثياب . وكان يركب جواداً عربياً من أجمل الجياد ، ويضع على رأسه عمامة ناصعة البياض ويلبس عباءة فى نصاعةِ بياضها أيضاً ، موشّاة بالذهب ، تتدلّى منها على كتفيه عقود من الحرير الأحمر[2] » .

ويقول المؤرخون الفرنسيون ورجال الحملة الفرنسية إن الأمير المجاهد قتـــل فى حربهم ، ولــكن شهادة الــكولونيل الإنجليزى روبرت ولسون هذا بأنه التقى بالأمير بعد انتهاء الحرب ، ووصفَه له ، قرينة — إن لم تــكن دليلا — على عدم صدق ذلك ، وإنــكار لما زعم رجال الحملة الفرنسية من أنهم طاردوه حتى الصحراء ، ثم قتلوه على حدودها .

وكأنما كان ذلك أمنية لهم تمنّوها . فلم ينالوها ، فادعوها أو تخيّلوها .

---

(١) ذكر ذلك الــكولونيل « روبرت توماس ولسون » من رجال الحملة الانجليزية .

(٢) كتاب « فتح مصر الحديث » : للمرحوم الأستاذ أحمد حافظ عوض ، ص ٣٥٦ — ٣٥٧ .

وبعد فترة غير بعيدة من هذا الزمن ، قام رجلان آخران بقسط غير مجحود فى الجهاد والكفاح أيضاً لإخراج الإنجليز من مصر : هما شقيقان كانا من أكبر تجار القاهرة وأوسعهم ثروة؛ اسمهما أحمد وسلامة النجارى، وهما غير مصريين وطناً . ولعلهما — كما تدل بعض الدلائل — من أبناء المغرب أيضاً .

سمع هذان الأخوان نبأ قدوم الحملة الإنجليزية الغادرة إلى مصر ، فى سنة ١٨٠٧ م وسمعا عن ذلك الموقف الرائع المشرف الذى وقفته أمامها مدينة رشيد ، فأرادا أن يسهما فى هذا الشرف ، وأن يعينا المجاهدين فى حربهم . فجمع الأخوان مائة من البدو والمغاربة ، وتكفلا بتسليحهم ، والإنفاق عليهم فى جميع حاجاتهم .

وتم للأخوين تجهيز هذه الفرقة وتسليحها ، ثم سارا معها إلى رشيد ، حيث اشترك جنودها فى الحرب مع أهل المدينة وفى مدافعة الإنجليز عنها . وكان الأخوان يشاركان بذاتيهما فى الحرب أيضاً، وتطوعا فوق ذلك بالإنفاق على المحتاجين من المحاربين ؛ غير جيشهما الصغير .

ولما تم النصر لأهل رشيد ، وهزم الإنجليز فيها وفى غيرها ، فرق هذان الأخوان جميع ماغنما فى الحرب ، وفرقا جميع ما معهما من مال . فرقا هذا

وذلك على من خرج لمطاردة الإنجليز ، وجعلاه جائزة لـكل من يتعقبهم في فرارهم بعد الهزيمة .

* * *

وإني وأنا أكتب حديث هذا الأمير المجاهد وهذين الأخوين المجاهدين أيضاً ، أجد في خاطري ذكريات ، وفي قلبي أحاسيس .

ذكريات خاطري أن هذا المجاهد الذي قدِم من الغرب كانت — وما تزال — بلادُه وبلادي وطناً واحداً في الشعور والعاطفة والإحساس . كما كانت وما تزال البلادُ العربية كلها ؛ وأن رائداً آخر من روّاد الثقافة والمعرفة ، هو ابن خلدون ، قدِم من بلاد الغرب هذه إلى مصر ، واستقرَّ فيها شَطْراً طويلا من عمره حتى مات ؛ فلم يشعر أنه غادر وطنه ، ولا فارق أهله .

وكذلك قدم من أقصى هذه البلاد رائدٌ آخر من روّاد الثقافة والمعرفة هو ابن بطوطة فشاهَد هذه البلاد ، ووصَفها ، وأقام فيها ؛ فلم يشعر أنه غادر وطنه ، ولا فارق أهله .

وكذلك فعل كثيرون غيرهما من العلماء والمتصوّفة والتجار والزائرين

والحجاج وطلبة العلم فى الأزهر ؛ وأنّ آلافاً من القوافل، وآلافاً من الناس فى مئاتٍ من السنين ، سَلَكوا هذا الطريق الذى سلكه هذا الأمير المجاهد إلى مصر ، و إلى بيت الله الحرام ، فلم تمنعهم حدود ، ولم تردّهم قيود ، ولم تقف فى طريقهم سدود؛ مهما طوَوْا من البلاد، وقطعوا من الآماد.

* * *

و إحساس قلبى ، هو هذا الذى يحسّه كل عربى وكل منصفٍ فى العالم كله ، نحو هذا الوطن المكافح المجاهد الصابر من بلاد المغرب : الجزائر .

وقد ترجَمْنا نحن فى هذا الوطن العربى ، هذا الإحساسَ إلى مشاركةٍ وعمل ؛ فعطَف الشعب كلُّه وأعان و بذَل . وسيُعين و يبذل ما دام هذا الوطن فى حاجة إلى بذل ، وحتى تتحقق له أكرم الغايات .

* * *

وعندما نذكر قصة هذا المجاهد من المغرب ، وهذين الشقيقين أيضاً ، فنحن نحسُّ أننا نردُّ يداً تقدّمت ، ونقضى دَيناً سلَف . كما نحسّ أننا نبنى

الحاضر : ونشيد لمستقبل هذه الأمة العربية التي يوحد بينها من قديم الزمن شعورٌ واحد ، تؤكده أحداث التاريخ ، وتوثقه قلوب الناس وعواطفهم كما توثقه مصالحهم ، ونشيد بنياناً لعلنا نراه ، أو يراه أبناؤنا وأحفادنا : هو بنيان هذا الوطن العربيّ الموحّد ؛ بنياناً يقوم على واقع الأمر وحقيقته وأساسه ، كما هو قائم على الوشائج والإحساس والشعور والضمائر والعواطف .

الفصل ما شهدت به الأعداء

كانت ثورات أهل القاهرة القوية العارمة المتلاحقة سبباً من أكبر الأسباب لخروج نابليون وجنوده من مصر ، رغم ما أوقعوا بأهلها من المظالم والمغارم، وكانت ثورات أهل المدن والقرى والريف أيضاً من أكبر الأسباب لهذا الذى أكره عليه الفرنسيون صاغرين . كما كانت هذه الثورات وتلك من أعظم ما لقى الفرنسيون من الشدة والمحنة فى بلادنا وفى البلاد التى أبتليت باحتلالهم .

وهناك شهادة رجل محايد ، بل هو صاحب هوى وميل للفرنسيين ، نعرف منها إلى أى حد كانت هذه الثورات سبباً من أسباب الشقاء الذى لقيته جنود فرنسا الباغية . وكيف كان وقع هذه الثورات ، بل الحروب المتصلة ، فى نفوس هؤلاء الجنود .

هذا الرجل المحايد ، بل العدوّ المخاصم ، هو : « نقولا الترك »[1] أو « المعلم نقولا » . وقد كان نقولا هذا ، كما نرى فى ترجمته وسيرته ، مع الفرنسيين بقلبه وهواه وعاطفته ، فهو يبالغ بأسلوبه المسجّع فى الإشادة

---

(١) نقولا الترك هذا ، أو نقولا الأرمنى ، يؤخذ من الترجمة الفرنسية لكتابه ومن مصادر أخرى ، أنه ابن يوسف الترك ، ولد فى سنة ١٧٦٣ فى دير القمر بلبنان . وأصل أسرته من يونانيى القسطنطينية ، ولذلك سمّى « بالترك » ، أى التركى . هاجرت أسرته إلى جبل الدروز واعتنقت المذهب الكاثوليكى . وكان المعلم نقولا يشتغل بخدمة الأمير بشير الشهابى الكبير . فأرسله الأمير إلى مصر قبيل الحملة الفرنسية عليها ليطلعه على أخبارها . ويقول بعض المؤرخين . إنه أقام فى دمياط ثلاث سنين — المدة التى أقامها الفرنسيون فى مصر — وكان يراسل الأمير بشيرا بأخبار نابليون وحملته . لأن الأمير كان يتوقع غزو نابليون الشام . فلما خرج الفرنسيون من مصر عاد نقولا إلى دير القمر ، وكفّ بصره فى آخر عمره . فكان يملى على بنته مايريد أن يكتب . ومات فى سنة ١٨٢٨ .

وقد وضع نقولا كتابه : « ذكر تملك جمهور الفرنساوية الأقطار المصرية والبلاد الشامية » وطبع فى دار الطباعة السلطانية بباريس سنة ١٨٣٩ وطبعت معه ترجمته الفرنسية بعنوان « تاريخ الحملة الفرنسية فى مصر » ترجمه مسيو ديجرانج ليذيه . ثم طبعه مرة أخرى المعهد الفرنسى للآثار الشرقية فى القاهرة فى سنة ١٩٥٠ بتعليقات للمسيو جاستون فييت . وهذه الطبعة تزيد عن الأولى ، وتنتهى حوادثها إلى أغسطس سنة ١٨٠٤ وتتحدث عن مقدمات عهد محمد على .

ونقولا الترك واضح الميل بل التعصب للفرنسيين . له فى كتابه شعر مضحك فى مدح نابليون والإشادة بكفايته وشجاعته ، وشعر فى رثاء الجنرال كليبر . لذلك نجد لشهادته قيمة كبيرة ، فيما يتعلق بمقاومة المصريين لنابليون وحملته ، واستبسالهم فى هذه المقاومة . لأنها شهادة ليس من الهيّن عليه الاعتراف بها .

ولنقولا الترك ديوان شعر باللغة العربية طبعته حكومة الجمهورية اللبنانية فى سنة ١٩٤٩ فى مجموعة : « نصوص ووثائق تاريخية » وأشرف على طبعه الأستاذ فؤاد أفرام البستانى .

بعبقرية نابليون ونبوغه ، وفى شجاعة الفرنسيين ، ولـكن هذه العاطفة لم تحل بينه وبين أن يذكر ما قام به شعب مصر من الـكفاح المجيد المشرّف فى مقاومة نابليون ، وما لقى هذا الشعب من المحَن القاسية ، من الجنود الفرنسيين ، ثم ما لقيه هؤلاء الجنود ، وقوّادهم ، من مقاومةٍ وعناء، جعلا بقاءهم فى مصر أمراً مستحيلاً ، وهو يشهد هذه الشهادة لشعب مصر مصحوبةً بكثير من المرارة والحسرة ، والفضل ما شهدت به الأعداء .

* * *

يقول نقولا إن مقاومة الشعب المصرى للفرنسيين كانت تشمل البلاد كلها ، وقد « تظاهر المصريون ، على الطائفة الفرنساوية ، وقامت الأربع أقاليم المصرية ، القبلية . والبحرية ، والغربية ، والشرقية ، وكان فى كل وقت يقع الخصام بينهم وبين الجنرالية . — أى الفرنسيين — من الأربع الجهات المصرية ، وتحرق البلاد ، وتهلك العباد» .

وذكر أن أهل المنصورة قاموا على الحامية الفرنسية فى يوم خميس — وكان السوق الأسبوعى يقوم فيها فى ذلك اليوم — فحاربوها حتى هرب من بقىَ حيًّا منها إلى البحر — أى النيل — ولـكنهم لم يستطيعوا السفر فيـه إلى القاهرة ، لأن أهل المنصورة وقفوا لهم ومنعَوهم . فلما نزل جنود الحامية إلى البر يريدون الهرب حاربهم المصريون حتى أفنَوْهم . ولما علم الجنرال ديزيه نبأ إفناء هذه الحامية وجّه حملة مؤلفة من ثلاثة آلاف جندى إلى

المنصورة ، ولـكنه وجد من الحـكمة ، ألا يحارب أهلها ، وفرض عليهم ضريبة من المـال .

وكذلك قام أهل دمياط على حاميتها ، بزعامة شيخ إقليم المنزلة الشيخ حسن طوبار . فاتفق أهلها مع أهل القرى المجاورة على التجمع فى قرية « الشعرا » . ثم هجموا ليلاً على الحامية الفرنسية فى دمياط . ولـكن الحامية ، بعد حرب غير متكافئة القوى ، تغلبت على الوطنيين . وهاجر الشيخ حسن طوبار إلى الشام .

وأشار نقولا أيضاً إلى الثورة التى قامت فى الصعيد ضد الاحتلال الفرنسى ، وكان قائدها الشيخ محمد الجيلانى يقود جيشاً من الثوار تعداده سبعة الآف . ويقول إنه قامت فى دمنهور ثورة فى شهر المحرم سنة ١٢١٤ — يوليو ١٧٩٩ — يقودها هذا المجاهد ، فسار إليها حاكم الإسكندرية وقائد حاميتها وحارب الثوار حتى هزمهم بعد جهد ، ولـكنه لم يتمكن من أسر قائد الثورة[١] .

وفى العريش قام المصريون على حاميتها الفرنسية وأحرقوها داخل القلعة التى كانت تتحصن فيها ، واستولوا على القلعة .

---

(١) انظر فصل : « مجاهد من الغرب » ، الفصل السابق من هذا الـكتاب .

أما الأمثلة التى ذكرها نقولا عن شجاعة المصريين، وروحهم المعنوية العالية ، فأكتفى من ذلك بمثل واحد ، هو الشيخ محمد كريم حاكم الإسكندرية ، فقد وقعت فى يد نابليون رسائل منه إلى مراد بك يطلب فيها حضوره إلى الإسكندرية ، ويعلن استعداده لتسليم قلعتها إليه .

فحكم نابليون بإعدامه . وتشفع الأعيان والعلماء فى الشيخ فلم يقبل منهم ولم يقبل الشيخ أن يفتدوه بمبلغ كبير من المال .

ولما سار الجند الفرنسيون بالشيخ إلى ساحة الإعدام ، كان ينادى فى الجموع الحزينة ، الخاشعة ، التى تقف فى طريقه : « الجهادَ . الجهاد . . اليوم لى وغداً بكم . . ! »[1] . أقتلوا الفرنسيين قبل أن يقتلوكم ، كما يقتلوننى الآن .

---

(١) ترجمة السيد محمد كريم وجهاده ص ١١٨ — ١٢١ من كتابنا : دراسات فى تاريخ الجبرتى ، مصر فى القرن الثامن عشر ، الجزء — ٣ — الطبعة الثانية .

الشيخ جيمس أبو نضارة

السيف أصدق إنباءاً من الكتب — في حده الحد بين الجد واللعب

هكذا يقول أبو تمام في قصيدته البديعة عن فتح عمورية .

ولكن بعض الكتب و بعض الأقلام ، قد تكون أحد وقعاً ، وأقوى أثراً من السيف . والقلم ، في كل حال ، لابد أن يمهد للسيف ، فيهيئ له النفوس ويملأ القلوب و يجند العواطف والمشاعر ، و يصور الظلم فيثير الغضب و يحرك الثورة . و إذا كان صاحب القلم مؤمناً بفكرته ، مخلصاً في قصده ، ممتازاً في نشاطه وثقافته ، محيطاً بخصائص عصره . كان قلمه أوقع من السيف وأقوى أثراً من الحديد والنار ، وأشد فتكاً من المتفجرات والقنابل .

وقد نرى في بطولاتنا العربية رجالا ونساءاً جاهدوا وقاتلوا بالسيف والنار ، وكانت لهم بذلك الكرامة والمحمدة والشهادة . وفي هذا الفصل نقص سيرة مجاهد لم يحمل سيفاً ولا ناراً ، ومع ذلك كان أثر قلمه أقوى

من النار والحديد . وخشِيَ الظالمون قلَمه هذا وخافوا منه على عروشهم فأخرجوه من وطنه مصر حتى مات عنها غريباً . ولكنه ، فى غربته البعيدة ، كان يرسل عليهم من قلمه لهيباً وحُمَماً تحرقهم وتزعزع عروشهم تلك .

* * *

مائة وعشرون سنة مرّت على مولد رائد من أوائل الروّاد وأكثرهم إخلاصاً وأبعدهم نشاطاً فى تاريخ مصر الحديث . رائد يضعه نشاطه وإخلاصه، وتضعه تضحياته ومثابرته فى صفّ الرجال الذين بنَوْا صرح الوطن المصرى وأقاموا الحياة المصرية التى يشهد الجيلُ المعاصر نواحىَ متعددة منها ، يضَعه إخلاصه ونشاطه وعمله فى صفّ على مبارك وعبد الرحمن الكواكبى وعبد الله النديم ومصطفى كامل . ويزيد « أبونضارة » عنهم بتعدّد أوجه النشاط السياسى والثقافىّ والصحفى الذى كان يباشره ويحسِنه ، أو يبلغ فيه درجة التفوق والإجادة والتبريز .

مصرى مكافح ولد فى حىّ « الموسكى » بالقاهرة ومات فى باريس . وبين هذه وتلك نجد حياة حافلة بالنشاط والكفاح والتضحية والمثالية والتجرّد للفكرة : فكرة الحرية والتقدم والسعى الدائب المثابر لاستقلال مصر وتخليصها من المستبدين الظالمين ، وخاصة حكم إسماعيل .

حياته الشخصية كذلك مليئة بالغرائب والمتناقضات ، وتجمع أسرته بين الأديان الثلاثة الكبرى: اليهودية والمسيحية والإسلام . كان أبواه يهوديين وكان هو مسلماً . وتزوج مسيحية كاثوليكية وكان أولاده منها مسيحيين . ولذلك جمع الخصائص البارزة لطائفته التي نبتت منها أسرته ، وخصائص غيرهم من الذين تثقف بثقافتهم أو دخل في دينهم .

في سنة ١٨٣٩ حملت أمه وقلبها يضطرب بالخوف والرهبة ، فقد ولدت قبله أربعة أطفال ماتوا واحداً بعد واحد . لم يعش منهم أحد أكثر من أسابيع قليلة . وكانت للأم صديقة تحبها وتستمع لرأيها ، فنصحت لها صديقتها هذه أن تقصد مسجد الشيخ عبد الوهاب الشعراني فتزور شيخه وتلتمس منه البركة والدعاء لجنينها . وباركها الشيخ ودعا لها و بشرها بأنها ستلد ولداً . وطلب إليها الشيخ أن تهب ولدها لخدمة الإسلام . وولدت الأم طفلا لم يعارض أبوه في أن يهبه لما وهبته أمه حيث طلب إليها الشيخ . فكان أول شيء تعلمه حين صار صبيا أن حفظ القرآن . فلما بلغ الثالثة عشرة كان ينظم الشعر . وفي الخامسة والعشرين أجاد ثماني لغات حديثاً وكتابة . وعندما بلغ الأربعين كان — كما يقول هو و يقول مؤرخوه — يجيد من اللغات اثنتي عشرة هي : العربية والعبرية والتركية والإنجليزية والفرنسية والإيطالية والألمانية والبرتغالية والأسبانية والروسية والمجرية والبولونية

وكان يعلّم هذه اللغات لأبناء الخديوى وأبناء الطبقة الراقية. كما يعلمهم الموسيقى.

وكما كان يعلّم أبناء الطبقة الراقية اللغات والموسيقى، كان يعمل لتنبيه الشعب وتثقيفه عن طريق المسرح والصحافة. بدأ نشاطه فى المسرح بداية أرستقراطية أيضاً. فألّف مسرحية باللغة الإيطالية مثّلت على المسارح الإيطالية. ثم ألف مسرحيتين بعدها فكان نجاحه فيها جميعاً نجاحاً كبيراً.

وفى سنة ١٨٦٦ « وهو فى سن الثلاثين » أنشأ مسرحا عربياً لقى من أول يوم نجاحاً عظيما. حضر حفل افتتاحه ثلاثة آلاف متفرج، كان منهم رجال حاشية إسماعيل والوزراء. ومثلت فيه مسرحية هزلية قصيرة. وكان الممثلون فى فرقته كلهم من الرجال، حتى الذين يقومون بأدوار النساء، وبلغ نجاح « أبو نضّارة » فى فرقته تلك شأواً بعيداً حتى طلب إليه إسماعيل إقامة حفلة ساهرة كبرى شهدها بنفسه وأعجب بها، وبدأ الناس فى مصر يضعونه فى مثل منزلة موليير — أبو المسرح فى فرنسا — فسموه: « موليير مصر ».

وكانت مسرحيّاته ترمى إلى غايات سياسية و إصلاحية. لذلك بدأت الدسائسُ تعمل ضده عند إسماعيل حتى أمر بوقف نشاطه وأغلق مسرحه بعد سنتين من إنشائه. مع أن إسماعيل كان يعجب به، وكلفه ببعض الرسالات والمهام قام بها فى أوربا وقدّم عنها تقريراً لإسماعيل.

إتجه بعد ذلك للنشاط الثقافى، فأسس الجمعيات الأدبية التى بدأت

تتحدث عن الإصلاح ومفاسد الحكم وحقوق الشعب . وطبيعى أن يثير ذلك إسماعيل ويضاعف من سخطه عليه . حتى رأى أنه لا يستطيع أن يباشر نشاطاً . ولم تعد الصحف المصرية تتحدث عنه أو تنشر له شيئاً أو تشير إليه . فقرر أن ينشئ لنفسه صحفاً . وكانت بدايته فى الصحافة أيضا شبيهة ببدايته فى المسرح : أرستقراطية . فانشأ صحيفة بالفرنسية يبدو من اسمها نفسه منهجُها فى النقد والإزعاج . حيث سماها : « البعوضة » واتبعها بأخرى باللغة الإيطالية . وأصدر بعد ذلك صحيفة بثمانى لغات اختار لها اسما مصريًا فكهاً هو : « الترثار المصرى » ، صدرت فى سنة ١٨٧٨ . وأصدر بعد هذه الصحف الأرستقراطية فى جملتها الصحيفةَ التى عرف بها والتى نالت نجاحا صحفيًا وسياسيا كبيراً وهى صحيفة «أبو نضارة» . وكان إصداره لهذه الصحيفة بالاتفاق مع السيد جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده . وكان الثائرُ الأول ، الشيخ جمال الدين، يعرف قدر«أبو نضّارة» ويصادقه ويشجّعه ويثنى عليه . وقد كتب مقالين فى صحيفته .

دام نشاط «أبو نضارة» فى الصحافة من هذا التاريخ إلى نهاية حياته . مع نواح أخرى فى التأليف والمسرح . وكانت صحيفته تلك ، وما أصدره بعدها فى مصر وفى فرنسا ، صحفاً هزلية ، وهى أول صحف من هذا النوع عرفها الشرق . ولكن فكاهتها لم تكن هزلَ التسلية والسخف والإضحاك لإرضاء النفوس الفارغة . بل كانت فكاهة السخرية بالحاكم وتنبيهِ الشعب لحقه فى الحياة

والحرية وإثارته على ظلم حكامه بأسلوب لاذع فكه يستخدم فيه اللغة العامية التي يخاطب بها الشعب . فكان لأسلوبه هذا أبلغ الأثر في النفوس إذ ينبع من صميم مشاعره ، ويستخدم أمثاله وقصصه ، ويستمد من ثقافته وتاريخه ، ويلتقي مع مداركه ، ويصل عن طريق هذا كله إلى قرارة نفسه .

كان يثير السخرية بشخصية «شيخ الحارة» وإسرافه وبذخه وجهله وما يوقعه بالناس — سكان الحارة — من العسف والظلم وما يلازم تصرفاته من الجهل . وكان « شيخ الحارة » رمزاً لإسماعيل . يستطيع أن يدرك ذلك كل قارىء لصحفه . وكذلك يتناول في صحفه الحياة الاجتماعية في الشرق مطالباً بإصلاح الفاسد منها . وكذلك الأمر في مسرحياته الهزلية التي تناولت أساليب الحكم وفساد الحياة في المجتمع الشرقي لعهده .

ولكن المداراة والتستر والتخفي ، لم تكن كافية لستر أهداف هذه الصحف والمسرحيات . فغضب إسماعيل على صاحبها وأمر بوقف صحفه وإبعاده عن مصر ، فسافر إلى باريس في سنة ١٨٧٨ حيث أقام بقية حياته . وفي باريس ظل يصدر صحفاً تتسم بنفس الطابع ، وتنهج النهج نفسه ، وتهدف إلى نفس الغايات التحررية والإصلاحية التي كانت تهدف إليها صحفه ومسرحياته في مصر . وكان يختار أسماء الصحف التي يصدرها في

باريس بنفس الروح المصرية الشعبية التي يختار بها أسماء صحفه وتمثيلياته في مصر . ففي باريس صدرت له « أبو نضارة » أيضا ، و « النضارات المصرية » و « أبو صفارة » و « أبو زمّارة » و « الحاوى » و « الوطنى المصرى » وغيرها . ويضع على رأس صفحاتها الأولى طائفة من أسمائه وألقابه . فهو : الخواجا جيمس سانو ، وأبو نضارة ، والشيخ جيمس أبونضارة المصرى ، والشيخ أبونضارة زرقاء ، والشيخ ج . أبونضارة .الخ. ويستخدم في الإشارة إلى شخصيات عصره ألقاباً مصرية معبّرة تثير السخرية . فيشير إلى توفيق باسم : تلفيق ، وإلى نوبار باشا باسم : غوبار ، وإلى شريف باشا باسم : أبوأشرف ، ورياض : أبو ريضة . ويشير إلى توفيق أحياناً بوصف : ابن فرعون . واللورد كرومر يسمّيه : كرنب . أما عرابى فيشير إليه بلقب : سيد العرب . ويشير إلى الفلاح المصرى بوصف : أبو الغُلب ، وكتشنر : كوشِنْـكار .

وكانت له ، إلى جانب هذا النشاط المسرحي والصحفي ، نواحيَ نشاط أخرى متباينة . له كتب في الرحلات ، وذكريات نثرية وشعرية ، وترجمة لحياته ، وترجمةٌ لقسم كبير من القرآن باللغة الإنجليزية . عدا كثير من القصص والمسرحيات بالعربية والفرنسية والإيطالية . وظلّ يتابع هذا النشاط حتى مات في سنة ١٩١٢ .

وكان يقول إن له ، إلى جانب رسالته الوطنية لتحرير مصر ، رسالة أخرى مقدسة : هى مكافحة الأباطيل التى كانت تفرق بين المسلمين والمسيحيين . وكان ، وهو دون الخامسة عشرة ، يقرأ القرآن بالعربية والتوراة بالعبرية والإنجيل بالإنجليزية . وقام بجهود فى تعريف الأدب العربى والإسلام إلى العالم الأوربى ، فترجم شعرا عربيا إلى الإيطالية ، ونشر دراسات بالإنجليزية عن الأدب العربى . ووضع تمثيليات بالإيطالية عن الحياة المصرية مثلتها المسارح الإيطالية بنجاح .

كما كان يضع على رأس بعض صحفه التى أصدرها فى باريس أسما : لسان حال الأمة المصرية الحرة ، وشعارا آخر هو : مصر للمصريين . ولعله ، على ما أعتقد ، أول من صاغ هذا التعبير وأعلن هذا الشعار الذى بقى حيا متداولا إلى عهد قريب .

ومن سيرة هذا البطل نعرف أن أهل الأديان الثلاثة الكبرى فى وطننا كانوا جميعاً شركاء فى كفاح الظلم وحرب الظالمين ، بالسيف والنار . أو بالقرطاس والقلم .

شجاعة امرأة عربية

جاءت على مصر سنة ٤٥٧ هـ (١٠٦٤ — ١٠٦٥)م فكانت بداية محنٍ قاسية على أهلها متلاحقةٍ حاطمةٍ . وقع فيها الغلاء . « الذى فحُش أمره وشنُع ذكره ، واستمرّ سبع سنين » . وكانت الحروب تقع بين العرب فى البلاد والأقاليم ، وكان النيل منخفضاً لا يصل ماءه إلا إلى طرفٍ قليل من الأرض ، وقليلا ما كان هذا القليل يزرَع ، لنقص الرجال والبهائم وفقدان الأمن .

وجاء الوباء عقب الغلاء ، فتعطّلت الأرض من الزرع ، وتعرّت من الشجر والنبات . « وخيفَت السُبل برّاً وبحراً ، وتعذّر السفر إلا بالخفارة الكبيرة وركوب الغرَر والخطر . واستولى الجوعُ لعدم القوت » بيع أردَبّ القمح بمائة دينار ، ثم عدِم . و بيع الرغيف فى سوق القناديل بالفسطاط بخمسة عشر ، والبيضةُ بدينار ، وأُكِلت القطط والكلاب حتى قلّت ، وأخذ الناس يقيمون لها سوقاً تباع فيه وتشترى لتأكل « وأُكلت الدوابّ بأسرها فلم يبق للملك المستنصر ، سلطان مصر ، سوى ثلاثة أفراس ، بعد أن كانت له عشرة آلاف ، ما بين فرسٍ وجمل ودابّة .

و بيع الـكلب بخمسة دنانير والسنور بثلاثة » و باع رجلٌ داراً كان قد اشتراها بتسعمائة دينار · بعشرين رطل دقيق : « ودخل رجل الحمام فقال له صاحبه . مَن تريد أن يخدمك ... ؟ سعد الدولة ..؟ أو عزّ الدولة ، أو فخر الدولة ..؟ فقال له الرجل · أتهزَؤ بى .؟ فقال . لا والله ..! انظر إليهم · فنظر فإذا أعيانُ الدولة ورؤساءها صاروا يخدمون الناسَ فى الحمام لأنهم باعوا جميع موجودهم فى الغلاء ، واحتاجوا إلى الخدمة » .

وتزايد الحال واشتد البلاء حتى أكل الناسُ بعضهم بعضا . وكانوا يسيرون فى شوارع القاهرة المأهولة وطرقاتها يملأ الرعب قلوبهم خشية أن يختطفوا فيأكلهم الجائعون. فقد سمعوا أن فلاناً وفلاناً خطفهم الناس فى الطريق ثم لم يظهر لهم أثر ولم يعرف مصيرهم أحد . وترك أكثر الناس مصر فلم يبق فيها إلا من أقعده العجز والفاقة والجوع .

أقيمت صلاة الجمعة فى مسجد من مساجد القاهرة ، فلما وقف الإمام للصلاة لم يجد خلفه سوى ثلاثة ..! وجائت الجمعة القادمة فسمع الناس مَن ينادى عليهم بأنّ من يريد الخروج لصلاة الجمعة فى هذا المسجد فليشترك كل ثلاثة فى درهم حتى يسير معهم من يحرسهم من الخطف ..! « وانقطع ماء النيل ، و بلغت الرمانة والسفرجلة دينارا ، وكذا الخيارة . وكان يموت فى مصر ، فى كل يوم ، عشرة آلاف إنسان » :

ووجد بعض الذين برّح بهم الجوع أن الناس يسيرون متحفّزين خشية أن ينقض عليهم أحد فيخطفهم ، وكان الجائعون يجلسون على سطوح بيوتهم متجمّعين ومعهم حبال « وكلاليب » ، فإذا مرّ أحـــد إلى جوار البيت ألقوا عليه هذه « الـكلاليب » ثم رفعوه إلى سطح البيت بغاية السرعة و بكل ما بقى فى سواعدهم من قوة ، فإذا ألقوه بين أيديهم قطعوا لحمه وأكلوه ..! « واجتازت امرأة بزقاق القناديل ، وكان مسكن الأعيان وكبار القوم ، وكانت المرأة سمينة . فعلّقها بعض الناس بالـكلاليب وقطعوا من عجُزها قطعة وقعدوا يأكلونها ، وغفلوا عن المرأة ، فخرجت من الدار واستغاثت . فجاء الوالى وكَبَس الدار فأخرج منها ألوفاً من القتلى ».

وخرجت امرأة فى القاهرة ومعها كل ما تملك من ذهب وجوهر ، وكان شيئاً كثيرا ، وسارت فى الطريق تنادى : من يأخذ هذا ويعطينى بدَله دقيقاً أو قمحاً ..؟ فلم يلتفت إليها أحد ، فألقته فى الطريق فلم يمدّ له أحدٌ يداً ..! « فـكان تَرك الناس له أعجب من إلقاءها إياه ..! »

أما المستنصر فقد باع كل ماحوَته قصوره من ذخائر وفرشٍ وآنية ، حتى ثيابه وسلاحه وماقى قبور آبائه من حلىّ ، وباع ثياب جواريه ومهودَ أطفاله . وكانت فى قصوره ، من زمن الطائع الخليفه العباسىّ، ثيابٌ يحفظها

خلفاء مصر ويحرصون عليها أشدّ الحرص — ليعيّروا بها خلفاء العباسيين — فأخرجها المستنصر وباعها بأبخس ثمن ، وأخرج طَسْتاً وإبريقاً من البلور فبِيعا باثنى عشر درهما . ثم باع من هذا البلور ثمانين ألف قطعة ومن اليواقيت والجواهر والحرير الخُسرواني ما لا يحصى «وثمانين ألف ثوب، وعشرين ألف درْع ، وعشرين ألف سيفٍ محلّى» . .. : «وصار المستنصر يجلس على حصير ، وتعطّلتْ دواوينه وذهب وقاره . وكانت نساء القصور يخرُجن ناشراتٍ شعورهن يصِحْن : الجوع ..! الجوع ..! يردْن المسير إلى القرافة فيسقطن ويمتْن جوعاً» . وجاء وزير السلطان يوماً على بغلته فأنزله الناس من فوقها وأكلوها ..! وشنق الوزير بعض هؤلاء الذين أكلوا بغلته فتكاثر عليهم الباقون وأكلوهم ..!

وكانت فى القاهرة سيدة شريفة واسعة الثراء حرصتْ على بعض ما فى خزائنها من الطعام فبقيَتْ لها منه فضْلة . فلما علمت أن السلطان يجلس على حصيره ولم يعدْ يجد ما يأكله، أرسلت إليه قصعة من الثريد : «الفتة» وبقيتْ ترسل له هذه القصعة ، طعاما له ، فى كل يوم مرة واحدة . ولم يكن السلطان يجد ما يأكله غيرها فى نهاره وليله . أما بنات السلطان وأمّه فقد خرجن من القاهرة إلى بغداد خوف أن يمتْن جوعاً .

* * *

رغيف بألف دينار :

وخرجت امرأة ذات مال وحسب تحمل فى طيّات ثوبها عقداً بألف دينار وطافت به على من تعرف من الصاغة والتجار وأهل المروءة واليسار ترجوهم فى أن يأخذوا عقدها و يعطوها فيه دقيقا . ووجدت المرأة آخر الأمر مَن يأخـــذ عقدها و يعطيها فيه كيساً من دقيق . وأرادت أن تذهب به إلى بيتها فلم تجد من يحمله إلا بشرط أن يقاسمها فيه ، وأن يسير فى خفارته من يحميه من الناهبين . ووجدتْ من يحمى دقيقها بشرط أن يقتسم أيضا . وسارت المرأة خلف الرجال يحملون كيس الدقيق و يحرسونه حتى قاربَت أن تدخل بيتها فى « باب زويلة » فلم تلبث أن رأت الناس قد هجموا على من يحمل الـكيس وتـكاثروا على حراسه حتى نهبوه . وتقدمتْ هى لتنال شيئاً من الدقيق فلم تستطع سوى أن تملأ يديها منه . ودخلت بيتها فعجنَتْه وخبزت منه رغيفا ، وخبّأت المرأة الرغيف فى ثوبها ثم خرجت فتحايلت حتى دخلت باباً من أبواب قصر المستنصر ثم علتْ منه مرتقىً وصاحت وهى ترفع الرغيف فى يدها بحيث يراها الناس ؟ : أدعوا لمولانا المستنصر الذى أسعد الله الناس بأيامه حتى صار هذا الرغيف بألف دينار . . ! وأخذتْ تردّد ذلك وتصيح به زمناً ثم اختفت .

وسمع المستنصر قصة المرأة والرغيف فانقبضت نفسه وضاق صدره حتى أوشك أن يهلك ، ثم ثار فى قلبه الغضب وما كان باقياً فيه من سطوة ونخوة وحزم ، فأحضر الوالى وأقسم له بالله إن لم يظهر الخبزُ فى الأسواق فهو لا بدّ قاتله ... !

وعمَـد الوالى إلى حيلة : طلَب من السجن جماعة من الذين وجب عليهم القتل فألبَسَهم ثياباً واسعة وعمائم وطيالس مثل لبس التجار. ثم جمع تجار القمح والطحّانين والخبازين وجعل منهم مجلساً عظيماحافلا ، وأمر بأن يخرج إليه واحد من المسجونين، فلما خرج قال له غاضباً : كيف تجرؤ على عصيان أمر مولانا وسيدنا وسلطاننا فتَـكْـنز الغلال وتخفيها . . . ثم أمر أن تضرب عنقه فضربت . وأخرج رجلا آخر مثله فقال له وقد زاد غضبه : ما تظنّ جزاءك على أن تحتكر الغلال وتخالف أمر مولانا وسيدنا السلطان فتحبِس القمح عن الرعيّة . . . ؟ حتى فعل غيرك مثلك فجاع الناس . . . ! وأمر أن تضرب عنقه فضربت . ثم أمر بأن يدخل غيره ممن حكِـم عليهم بالإعدام . ولما رأى تجار الغلة والخبازون والطحّانون هذه الرؤوس تسقط أمامَهم قاموا إليه لا تحملهم أرجلهم من الخوف . وقالوا : أيها الأمير ؛ فى بعض ما جرى كفاية ، نحن نخرج الغلة وندير الطواحين ونظهر الخبز كلّ رطل بدرهم . فقال الوالى . هذا لا يكفى ، فقالوا . كل رطلين بدرهم

وأخذوا يتضرعون اليه و يتوسلون حتى قبل منهم .

وذكر الناس بالخير هذه السيدة الشجاعة التى اشترت الرغيف بألف دينـــار . . . !

وشاء الله بعد ذلك أن يرتفع الو باء ، و يعلو ماء النيل ، وتخصب أرض مصر . بعد أن بقيَ الناس بين الفَناء والبأساء سبعَ سنين ، كسنين يوسف .

السلطان الشهيد طومان باى

فى شهر رجب من سنة ٩٢٢ [أغسطس ١٥١٦ م] التقت فى «مَرْج دابق» بالقرب من حلب ، جيوشُ مصر وعلى رأسها سلطانها « الملك الأشرف قانصوه الغورى » بجيوش سلطان تركيا سليم شاه . وكسِرت جيوش الغورى بعد ساعات قليلةٍ بسبب الخيانة ، ولكن سلطان مصر لم يبرَح مكانه فى ساحة الحرب ، حتى قتِل تحت رايته . وكان السلطان سليم قد قهَر قبل ذلك الشاه إسماعيل ، شاه إيران .

دخل سليم مدينة حلب ، واستولى على بقية بلاد الشام ، ثم نزل بعد ذلك إلى مصر ، حتى وصل « الريدانية[1] » من أطراف القاهرة فالتقى بسلطانها العظيم . « طومان باى » .

ولم تكن المقادير التى جرَت على طومان باى خيرا من تلك التى لقَيهَا سلفه الغورى ، فقد هزمت جيوش مصر فى هذه الموقعة كما هزمت فى « مرج دابق » .

---

(١) العباسية الآن .

وفى الأيام الأولى من شهر المحرم للسنة التالية كان سليم يقيم فى السرادق الذى نصّبه لنفسه على شاطئ النيل فى بولاق وقد خيّل إليه أن مصرَ وسلطانها قد استسلَما لبطشه ، وسلّما بما جرت به المقادير .

ولكن . فى عتمة العشاء من ليلة الأربعاء ، وكان اليوم الخامس من المحرم ، تنادى الصائحون الخائفون فى معسكر السلطان بأنهم أحيطوا من كل جانب ، وتلفت السلطان فوجد بعض خيامه يحترق وشاهد عددا من الجمال تحمل على ظهورها أثقالا تتوهّج فيها النار ، وهى تجرى بين خيامه تشعل النار فى كل شىء ، وتنشر الذعر بين خاصة جنوده وقوّاده وحرسه . وكان المصريون هم الذين أطلقوا هذه الجمال بأثقالها المحترقة فى معسكر السلطان . وشهد الأتراك وسلطانهم بريق السيوف فى ظلمة الليل وضوء هذه النار المدمّرة وهى تطيح برؤوس جنده من حوله ، حتى أوشكت أن أن تناله هو .

وتقدم بعد ذلك الرجال والصبيان من سكان بولاق ، ونوتيّة السّفن الراسية على النيل يهجمون على سرادق السلطان سليم يرجمونه بالحجارة وقطع الأخشاب المشتعلة ، وكل ما تصل إليه أيديهم « حتى قتل من عسكر ابن عثمان مالا يحصى عددهم » وظلّ هذا الهجوم ، من طومان باى

ومَن بقى من جنوده ومن شعب القاهرة الذى شاهد المعركة أو سمع بها ، ظل الهجوم متصلا قويا إلى أن أصبح الصبح ، وحتى ظن سليم أنه سيقع في يد المصريين .

وأشرق نور الصباح وقد أحاط المصريون وسلطانُهم بسرادق سليم ، وشهد الأبطال المهاجمون عسكراً كثيفا قدِم لنصرتهم من « الناصرية » يقوده أمير من أمراء طومان باى فاشتدّ به ساعدهم وقوى هجومهم ، حتى « كانت هناك واقعة تشيب منها النواصى » . وظلت الحرب مستعرة بين الفريقين من طلوع الفجر إلى غروب الشمس ، واستردّ المصريون فى ذلك النهار قسماً كبيراً من مدينة القاهرة . وفى أثناء ذلك أحاط العرب بمعسكر السلطان سليم الذى أقامه فى الريدانية وهاجموه هجوما شديدا ونهبوا ما فيه . وظلت القاهرة مسرحاً كبيراً للاضطراب والفوضى ، واستمرّ القتال والقتل بين المصريين وعسكر السلطان سليم ، على أعنف ما يكون القتال والقتل . وكان السلطان طومان باى يقف فى مكانٍ ما بالقاهرة يتعرّف أنباء القتال وتلقى أمامه رؤوس الكبار من قتلى العثمانيين . وكان هؤلاء يهاجمون البيوت والمساجد وأضرحةَ الأولياء ويقتلون الشيوخ والعَجَزة والصبيان .

وظهر طومان باى فى حىّ « الصليبة » على ظهر فرسه يقاتل ويهاجم

حتى استولى على ما بينها و بين قناطر السباع . ولم يكن معه سوى نفر قليل من أمرائه وجنده. فأسرع بإقامة خندق يحيط بالأماكن التى استرجعها: [من الصليبة إلى قناطر السباع إلى ميدان الرميلة[1] إلى جامع ابن طولون إلى حدرة البقر] وأراد أن يشعل النار فيما استولى عليه العثمانيون من أحياء القاهرة . ثم عدل عن ذلك ، لأن من بينها حى « خان الخليلى ». وأخذ بعد ذلك يقسم جنوده للحرب والهجوم على جند السلطان سليم حيثما كانوا . و بذل فى ذلك كل جهد وحيلة ومقدرة . وكان فريق من جند مصر يتترس فى مسجد السيدة نفيسة و يحارب العثمانيين منه . فاقتحم جند السلطان سليم المسجد وتغلبون على من فيه : (ودخلوا إلى ضريحها وداسوا على قبرها وأخذوا قناديلها الفضة والشمع الذى كان عند قبرها وسجاجيد الزاوية وأخذوا من مقامها شيئاً كثيراً) وقتلوا من كان فى المقام من المحاربين والمسالمين .

وصعد جماعة من جند مصر إلى مأذنة جامع « المؤيد » يحاربون الأتراك ببنادقهم، وظلوا يحاربون حتى تسلق عليهم الأتراك المأذنة وقاتلوهم حتى آخر رجل .

---

(١) ألآن ميدان القلعة .

وكانت معركة فناء فى كل حى وشارع و بيت : (صارت القتلى من الجانبين أجسادُهم مرمية من بولاق إلى قناطر السباع إلى الرميلة إلى تحت القلعة ، وفى الحارات والأزقة وهم أبدان بلا رؤوس). وكان السلطان طومان باى يحارب بنفسه فى كل هذه الأماكن ويحرّض الناس على المقاومة . رغم قلة جنده وإعيائهم . وكلما نقص عدد جنده زادت حماسته اشتعالاً وزاد قتاله وفتكه شدّة وضراوة ، وظل هذا حاله أربعة أيام متوالية . حتى لم يبق معه سوى نفر قليل . عند ذلك رأى من الحكمة والخير أن يختفىَ ليظهر مرة أخرى بعد أن يجهّز جندا جديدا ، ويضع خطة جديدة .

وأنزل السلطان سليم وجنده غضبهم وطغيانهم وشرّهم على المسالمين والضعفاء من أهل القاهرة وسلّطوا عليهم سيف انتقامهم . واقتحموا مساجد الأزهر وابن طولون والحاكم بأمر الله وكثيرا من المساجد والزوايا والتكايا يقتلون و يسفكون الدماء . يقول ابن إياس مؤرّخ هذه الوقائع وشاهدها أنّ مَن قتل مِن أهل القاهرة يوم ذاك بلغ عشرة آلاف . ووقع أسيراً فى أيديهم ثمانمائة من جند طومان باى ، فقتلوهم جميعاً بين يدى السلطان سليم . وكثرت الكلاب فى القاهرة تنهش أجساد القتلى . وأسرتْ كثيرات من كبريات نساء مصر. منهنّ السلطانة زوجة السلطان

طومان باى ، ونقلن إلى حيث يقيم السلطان سليم فلم يلتفت لهن . ثم أمر بفرض ضريبة فادحة على زوجة طومان باى .

أراد السلطان سليم بعد ذلك أن يباشر سلطانه ، وأن يصعد إلى القلعة ، قلعة القاهرة المعزّية ، مقر الملك والحكم إذ ذاك . ولكنه كان يخشى غضب المصريين وانتقامهم . وكان يخاف أن يبطشوا به وهو فى طريقه إليها . فأمر بأن يترك الناس بيوتهم ومساكنهم على طول الطريق إلى القلعة . وأن تخلى المسالك والدروب والمساجد والأماكن التى تقع فى طريق سيره . وبقى أياما ينادى على ذلك فى القاهرة كلها . فلما أمن على نفسه صعد إلى القلعة . وأمر بأن ينادى بالأمان على أهل القاهرة . وأنه ليس يصيبهم سوء . وفى تعبير ابن إياس الساذج الصادق المؤثر نجد صورة لوقع هذا الأمان فى نفوس الناس ، وصدقه عند الجنود العثمانيين من رجال السلطان سليم . يقول ابن إياس : (... وكيف الأمان وقد خرجت الناس من بيوتهم على وجوههم فى أسوء الأحوال ... وهجمت الطوائف العثمانية على الناس فى بيوتهم وأخرجوهم منها وسكنوا بها حتى صارت الحارات والأزقة ما تنشق منهم وصاروا كالجراد المنتشر . وهدم الجنود العثمانيون بيوتاً ومساكن كثيرة استولوا عليها) .

ويصف ابن إياس شعور المصريين بعد انتهاء مقاومتهم الباسلة هذه بأن الناس عندما عرفوا أن عدوّهم السلطان سليم سيصعد إلى القلعة : « إنطلقت فى قلوبهم جمرة نار » .

وقد قتل سليم عددا كبيرا من المصريين بعد أن أعطاهم الأمان ، وساق خلفه عدداً منهم مقيّدين بالحبال عند صعوده القلعة .

ولا نتحدث عما أصاب القاهرة بعد ذلك من الجوع والقحط والخوف ولا ما أوقعه سليم وجنده بالناس من الظلم والقتل ، فهذا حديث يطول ، وليس مما نحن بسبيله فى هذا الفصل .

وكان من أول ما شهد المصريون من مظاهر الحكم التركى الجديد أن نصبت خارج القلعة « خيمة » فيها شراب « البوظة » وأخرى فيها الحشيش وثالثة فيها صبيان مرد « لأجل المحارفة » كما يقول ابن إياس .

* * *

تردّدت بعد ذلك أنباء كثيرة عن طومان باى وسعيه فى الصعيد ليجمع الناس من حوله فيعود بهم إلى القاهرة ليحارب فيها العثمانيين مرة أخرى . وكانت هذه الأنباء تصل إلى السلطان سليم فى القلعة فتدخل فى قلبه الخوف . ويزداد بطشه على أهل مصر .

وفى يوم الأحد ٦ ربيع الأول من سنة ٩١٣ [مارس ١٥١٧] خرج السلطان من القاهرة إلى الجيزة بعد أن تأكد له قدوم طومان باى لحربه وإخراجه من مصر . فرأى أنه لو بقى فيها حتى يجىء طومان باى لوقع بين نارين : جيش سلطان مصر ومن معه من المصريين والعرب الذين تجمّعوا معه . وشعبُ القاهرة الساخط الغاضب المتحفّز للانتقام والثأر والثورة .

وبقى سليم ينتظر فى الجيزة حتى قدمتْ جيوش مصر وعلى رأسها سلطانها طومان باى يوم الخميس ، بعد أربعة أيام .

وكانت بين الجيشين موقعة فَناء ، أشدّ هولا وإصرارا وضَراوةً من المواقع السابقة ، وهزِمت جيوش السلطان سليم أكثر من مرة ، حتى ألقى الكثيرون من جنده أنفسهم فى النيل ، هرباً من سطوة المصريين وسيوفهم ونيرانهم ، وقتل من الأتراك عدد كبير ، حرباً وغرقاً . ولكن النهاية لم تكن كما شاء طومان باى وشاء المصريون ، وكانت هذه هى المعركة الخامسة بين جيوش الأتراك المعتدية وجيوش مصر المدافعة الباسلة . ولكن طومان باى — رغم شجاعته النادرة وإصراره على الحرب والنصر — كان « أرشَل » كما يصفه ابن إياس ، أى سيّىء الحظ .

انطلق طومان باى بعد أن دافع عن وطنه وملكه وشرفه دفاع الأبطال، إلى قرية « البوطة » من قرى مديرية البحيرة .

وكان يقيم فى هذه القرية شيخ من شيوخ العرب هو حسن مرعى .

* * *

أمر سليم بعد نهاية المعركة أن يقتل زعماء المقاومة من المماليك والمصريين . فقتل منهم نحو ثمانمائة . ووضعت رءوسهم على أعمدة من الخشب طاف بها الطائفون شوارعَ القاهرة ليراها أهلها . وأفحش سليم ورجاله بعد ذلك فى ظلم الناس وإرهابهم إلى أبعد غاية . وأخذ سليم ينقل من معالم القاهرة ومساجدها كل شىء يعجبه ، وكل صاحب صنعةٍ دقيقة . أخذ يجمع ذلك كله، حتى الرخامَ الجميل وأعمدة المساجد والحمامات، ويأمر بنقل ذلك كله إلى الأستانة . نقِل ذلك على ألف جمَل ، كما يقول الجبرتى .

وبلغ مَن جمعَهم سليم من رجال الصنعة الدقيقة والحرف الفنيّة أكثرَ من ألف صانع وعامل . نقلَهم جميعاً من مصر إلى تركيا . وكان لذلك أثره البعيد فى الفن والصناعة لفترة طويلة بعد ذلك . حتى عدِمَت من مصر صناعات فنّية دقيقة . وتلاشى أمرُها فنسِيت وماتت .

الخيانة مرة أخرى :

فى قرية « البوطَة » نزل طومان باى على صديقه شيخ العرب حسن

مرعى وابن أخيه « شكر » . وكان حسن مرعى هذا مديناً لطومان باى بأفضالٍ كثيرة : كان حسن مرعى سجيناً من عهد سلطان مصر السابق « الغورى » فأخرجه طومان باى من السجن . وكثيراً ما دفع له طومان باى مالا يستطيع دفعَه من الأموال والمغارم التى كان يفرضها عليه الغورى. فكان من حقّ طومان باى أن يطمع فى عرفان الجميل عند صديقه هذا . وابن إياس يقول إن حسن مرعى هو الذى طلب إلى طومان باى أن يختبىء عنده ... !

ولما نزل السلطان علىٰ حسن مرعى وابن أخيه ، أحضر مصحفاً وطلب إليهما أن يقسما ألاّ يخوناه ولا يشيا به ولا يجعلان خبَره يصل إلى عدوّه وعدوّ وطنهما سليم . فأقسم حسن مرعى وابن أخيه على ذلك سبعَ مرات، على المصحف الشريف .

عند ذلك أمِن طومان باى ورضىَ أن يقيم عندهما . وبدأ المصريون وعرب البحيرة يتجمّعون مرة أخرى حول السلطان ويلتفون به . وليس بعيداً أن يراودِه الأمل مرة أخرى فى أن يجمع شمل المقاومة المصرية فيعود إلى حرب غريمه السلطان سليم فى القاهرة . ولكن الخيانة أيضا كانت من وراء هذا الأمل وهذا السعى ، فقد أرسل شيخ العرب حسن مرعى وابن

أخيه إلى سليم نبأ طومان باى وقدومه إليهم ، وأنهم يحتجزونه حتى يرسل لهم من يأسره .

و بادر السلطان سليم عند ذلك فأرسل جماعة من جنده حيث أخذوا السلطان الشهيد من عند صديقه الخائن حسن مرعى . وكانت يد السلطان التى حملت السيف وعرفت كيف تدافع به عن شرف مصر ، ولم تلقه إلا لترفعه مرة أخرى . كانت يد السلطان مكبّلة بالحديد ، يحيط به حرس شديد من جند السلطان سليم ، وكان ما يزال متخفّياً ، زيادة فى الحيطة والحذَر ، يلبس ملابس عرَب الهوّارة فى الصعيد . وانفضّ الناس الذين بدأوا يتجمعون حوله.

سارع الجند بالسلطان الأسير إلى غريمه وعدوّه ، فبادر هذا بملاقاته وأمَر أن يسرعوا بإدخاله عليه ، وكما كان طومان باى شجاعاً فى حربه . كان شجاعا جسوراً فى أشدّ المواقف حرجاً وضيقا . موقفِ الأسير المقهور أمام عدوّه الظافر القاهر المتغلّب ، الذى يمتلأ قلبه زهْواً وغضباً وحقداً . لم يشعر فى هذا الموقف الكريه بشىء من الذلّة أوالتخاذل ، بل كان ممتلىء القلب كبرياء وعزة وشجاعة وأنـفَة. عندما أدخِل طومان باى على سليم استقبله هذا واقفاً ، ثم قال له : « لماذا لم تعترف بسُلطتى وتدخل فى طاعتى عندما دعَوْتك إلى ذلك ..؟ » فأجابه طومان باى : « إنى مكاشفه

بالدفاع عن بلدى الذى أحكمه ويجب علىّ أن أحميه وأصونه . كما يجب أن أصون الحرَمين الشريفين : مكة والمدينة . أمّا أنت فما أدرى كيف تبرّء نفسك أمام الله من عدْوانك الظالم علينا وعلى بلادنا .. ! » وأخذت الدهشة قلب السلطان سليم وعقدَت لسانَه . ولكن طومان باى انطلق يقول : « إنك ياسلطان تركيا غير ملوم على سقوط مملكتنا وهزيمتنا . بل الذنب كله على الخونة .. ! » وأشار إلى خير بك وجان بردى الغزالى : الخائنين اللذين تواطئا من قبلُ مع سليم ، وكانت خيانتهما سبباً فى هزيمة مصر وسلطانها .

وكانت شجاعة طومان باى فى هذا الموقف العصيب سبباً فى تقدير السلطان سليم له واحترامه إيّاه ، فقال : ليس من العدل أن نقتل رجلاً شجاعاً صادق العزيمة كهذا الرجل ، وانتهى مجلس السلطان .

«ولكن الخائنين خشيا على حياتهما . ولم يجدا لهما أمْناً إلا فى أن يقتل طومان باى ، فاحتالا لذلك . إذ حرّضا بعضَ أتباعهما ليقف فى طريق ركب السلطان سليم ، حتى إذا مرّ دعوا لطومان باى بالنصر وطول العمر . ومرّ السلطان سليم فى ركبه فسمع ناساً يقولون بصوت مرتفع : «الله ينصر السلطان طومان باى .. ! » فثارت فى نفسه الهواجس والوساوس . وأكمل الخائنان تدبيرهما » فحرّكا فى قلب السلطان سليم الغضب والخوف .

وحرضاه على قتل غريمه ، لأن الناس يحبونه ، وقد تحدث في مصر أحداث إذا تركه سليم حياً ورجع إلى تركيا . وكانت نفس السلطان سليم مهيأة لذلك ، بعد ما سمع وشاهد من الدعاء والنداء .

بعد تلك المقابلة العاصفة ، وهذه الدسيسة الخسيسة . اعتزم السلطان سليم أن يقتل سلطان مصر الشهيد الشجاع . فأبقاه إلى جواره في «الخيمة» التي كان يقيم بها في «امبابة» ، سبعة عشر يوما . حتى جاء يوم الاثنين ١١ من ربيع الأول ، فنقلوه إلى بولاق في حراسة أربعمائة جندي عثماني . وكان يركب « كديشا »(١) وعليه ثيابه التي أسر بها في زي عرب الهوارة . والحديد في يديه ، فسار به حرسه من « مرجوش » وقد تجمع الناس إلى جانبي الطريق لرؤيته . وكان يلقي عليهم السلام ويحييهم وهو لا يعرف ماذا يريد به أعداءه . وكان أهل القاهرة يعتقدون أن السلطان سليم أمر بنقله إلى مكة . ولكن حرسه وقف به عند « باب زويلة » ثم أنزلوه من فوق كديشه وأرخوا الحبال التي كانوا يوثقونه بها . والتفوا حوله وسيوفهم مسلولة .

نهاية بطل :

وأدرك السلطان عندئذ أنه سيشنق ، فوقف على قدميه رافع الرأس

---

(١) الفرس الهجين : غير الأصيل

شامخاً ثم قرأ الفاتحة ثلاث مرات وطلب إلى مَن حوله من الناس أن يقرأوها ، فقرءوا ، ثم قال لمن سيشنقه : « إبدأ عملك ...! » وانقطع الحبل من حول عنقه فسقط على الأرض مرتين أو ثلاثا وهو مكشوف الرأس .

« فلما شنق وطلعت روحه صرخت عليه الناس صرخة عظيمة ، وكثر عليه الحزن والأسف ، فإنه كان شابا حسن الشكل كريم الأخلاق... وكان شجاعاً بطلا تصدّى لقتال ابن عثمان وثبت وقت الحرب بنفسه وفتك فى عسكر ابن عثمان وقتل منهم مالا يحصى ، وكسرهم ثلاث مرات وهو فى نفر قليل من عسكره . ووقع منه فى الحرب أمور لم تقع من الأبطال العناترة . وكان لمّا سافر عمّه السلطان الغورى جعله نائب الغيبة عنه إلى أن يحضر من حلب ، فساس الناس فى غيبة السلطان أحسن سياسة ، وكانت الناس عنه راضية فى غيبة السلطان ، وكانت القاهرة فى تلك الأيام فى غاية الأمن من المناسر والحريق وغير ذلك . ولما مات السلطان الغورى عمه وتسلطن عوضه ، أبطل من المظالم أشياء كثيرة ولم يشوش على أحد فى مدة سلطنته » .

ولما وصل السلطان سليم إلى الشام وأراد أن يخرج لحربه ، كانت خزائن مصر خالية . فنصحه مستشاروه أن يأخذ من أهل القاهرة أجور مساكنهم سبعة شهور مقدّمة ، وأن يأخذ ضرائب الأطيان سنة مقدّمة . فلم يسمع لهم شيئاً وأبى من ذلك وقال : « لا أجعل هذا مسطراً فى صحيفتى » وعندما

شنق طومان باى كانت سنّه أربعاً وأربعين سنة. وسلطنتُه على مصر دامت ثلاثة أشهر وأربعة عشر يوما . و بقى جثمانه معلقاً على « باب زويلة » ثلاثة أيام حتى ظهرت رائحته . و بعد ذلك أنزلوه ووضعوه فى تابوت ثم نقلوه إلى مدرسة عمّه الغورى فدفنوه فى فنائها الخلفى. « ولم يسمَع بمثل هذه الواقعة فيما تقدم من الزمان أن سلطان مصر شُنق على باب زويلة قط ، ولم يعهَد مثل هذا » .

وقد وضع ابن إياس — الذى نقلنا عنه السطور السابقة — قصيدةً فى رثاء طومان باى نلمس فيها صدق العاطفة ، ووَقْع الفاجعة فى هذا السلطان الشهيد . على ما فى هذه القصيدة من ركاكةِ النسْج وضعف الأسلوب ، الذين كانا طابَع الشعر والنثر فى ذلك العصر .

يقول ابن اياس :

نوحوا على مصرٍ لأمرٍ قد جرى   من حادثٍ عمّت مصيبته الورى

ثم يصف هزيمة جيش مصر أمام السلطان سليم، و يصف ملوك مصر وعظَمتها المنهارة ، وأعيادها وأمجادَها ونظام جيوشها وقوّتها . و يصف ، فى تأثرَ وتفصيل ، ما أوقعه سليم وجنوده من الخراب والشرّ بالقاهرة

ومساجدها و بيوتها ، حتى « الخيمة العظمى » ، التى كانت مخصصة لمولد النبي الكريم ، بيعت بأبخس الأثمان . ثم يجمل ما فصل فيقول :

زالت محاسن مصر من أشياء قد كانت بها تزهو على كل القرى
لهفى على الأمراء كيف تشتتوا وخلتْ منازلهم وعادت مقفرا

ويصف قتل الشيوخ والأطفال وامتهان المحصنات من النساء ، ثم يتلهف على سلطان مصر الشهيد طومان باى فى هذه الأبيات الحزينة الجازعة :

لهفى على سلطان مصر كيف قد ولّى وزال ، كأنه لم « يذكرا »
شنقوه ظلماً فوق باب زويلةٍ ولقد أذاقوه العذاب الأكبرا
يارب فاعفو عن عظائم جرمه واجعل جنان الخلد ، رب ، له قِرا(1)

جمرة النار

وقد أوشكت « جمرة النار » التى قال ابن إياس إنها اشتعلت فى قلوب المصريين من قتل سلطانهم الشهيد . أوشكت هذه الجمرة أن يحترق بها السلطان سليم فتُرديه وتُنهى حياته .

---

(1) هذه الأبيات وحدها هى الموجودة فى تاريخ ابن إياس . والقصيدة كاملة فى خطط على مبارك ص ٦٢ — ٦٣ من الجزء ١٥ .

والمقتبسات عن ابن إياس فى الصفحات ١٧٢ — ١٧٤ الجزء — ٥ — من تاريخه . طبع جمعية المستشرقين الألمان فى اسطنبول سنة ١٩٣٢ بإشراف كالة ومحمد مصطفى وموريس سوبرنهايم .

فقد تجمّع فريق ممن بقى من خاصّةِ طومان باى ، وأحكموا أمرَهم على مؤامرة يغتالون فيها السلطان سليم .

كان سليم يقيم فى « قصر المقياس » بجزيرة الروضة . وكان حرسه الشديد يحيط به من كل مكانٍ نهاراً وليلا . واختار الأمير «قانصوه العادلى» أحد أمراء الجند فى جيش طومان باى ، ليلةً مظلمة . فنزل النيل فى مركب صغير يحرسه بعض المتآمرين من المصريين ، وصعد من سلّم المقياس إلى حيث دخل القصر . وسمع حديثَ الحرس فاختفى منه حتى انقطع الحديث . وسار فى طريقه إلى حيث ينام السلطان سليم ، ولكن بعض الحرس أحسّ به فتصايح على إخوانه . وأمسك الجميع سيوفَهم يهاجمون البطل المتَسلّل . وقد شهدوه بأعينهم يلبس ثياب الأعراب . فلما أيقَن أنهم مدرِكوه ، ألقى بنفسه فى النيل ، وكان أنصاره ينتظرونه فى المركب فأسرعوا إليه وحملوه بعد أن قطع مسافة طويلة وهو عائم ، وحرسُ السلطان سليم يكثِر من إطلاق الرصاص عليه ، وكان السلطان قد استيقظ خائفاً فزِعاً ، وأخذ يصيح فى حرسه ألا يكفّ عن إطلاق النار حتى يقتَل هذا الزائر البغيض . ولكن الأمير المغامر استطاع ومعه إخوانه ، أن يصل إلى البر وينجو عند ساحل بولاق .

أما الخائن حسن مرعى فقد تلقّى ثمَن خيانته من السلطان سليم ، حيث كافأه وأنعم عليه .

ولكنّه لقىَ جزاء خيانته من مصر أيضا . حيث هاجمه المصريون ومن نجا من الشراكسة ، مماليكُ طومان باى وأنصاره ، فذبحوا هذا الخائن وشربوا من دمِه ، وكذلك قتلوا أخاه « شكرا » . وأظهروا الفرح بقتل الخائنَين . فأقاموا فى القاهرة معالم الزينة والبهجة ، أمام أعين الأتراك .

شباب وبطولة*

(*) أكثر هذه الفصول أذيع من محطة الإذاعة المصرية خلال سنة ١٩٥٧م

صبيٌّ أسود

كان الصحابة والمجاهدون من المؤمنين خارجين من المدينة لملاقاة المشركين الذين قدموا لحربهم فى وطنهم وديارهم ، وكان النبى عليه السلام يلبس درعه ويسير معهم للحرب . ورأى الناسُ بينهم صبيًّا أسود يجدّ فى السير ليلحق بهم . فعجبوا لأمره ، وأعجبوا بإيمانه وشجاعته ، وأعادوه إلى المدينة لصغر سنّه ، وهو كاره .

ولقىَ المسلمونَ فى غزوة أحدٍ هذه بلاءاً وشدة : قتِل فيها حمزة، عمّ النبى وسيّد الشهداء ، وأصيب النبى بجرحٍ فى وجهه وشفته وجبهته . وكان من أسباب هذا البلاء وهذه الشدة أن اليهود الذين حالفَوا المسلمين وخرجوا للحرب معهم ، تركوهم قبل الموقعة وعادوا إلى المدينة . فكان المسلمون سبعمائة ، والمشركون ثلاثة آلاف .

وعاد النبى وأصحابه يتحدثون عما أصابهم ويتحدثون عن هذا الصبى الذى كان يريد أن يلحق بهم ويجاهد . فعَرف من لم يمكن يعرف أنه : « أسامة » ، ذلك الذى يحبّه رسول الله حبّاً جمّاً ، كما يحب أباه أيضا .

شهِد النبى أباه عبداً يباع فأحبته، وطلب إلى زوجِه خديجة أن تشتريه، فاشترته

وأعتقته . وتبنّاه النبي وأضفى عليه من حبه وبره . وأحب ابنَه أسامة أيضا.
وبلغ من حب النبى عليه السلام لابنه أسامة أنْ كان يركبه خلفه على ظهر
دابته وهو يدخل الكعبة . وكان يُجْلِسه على حجره مع الحسين بن على ،
حِبّ رسول الله وابن حبّه ، ويقول : « اللهم إنى أحبّهما فأحبَّهما »

وقتِل زيد فى حرب الروم ، فى غزوة مؤْتة : مزّقتْه رماح العدوّ وهو
يحمل رايةَ النبى عليه السلام .

اختار النبى أسامةَ أميراً على الجيش لغزو الشام ، وما يزال صغيرا ،
وأمرَه أن تطأ خيولُه أرض « البلقاء » وما جاوَرها من مؤتة ، فى أرض
فلسطين ، حيث قتِل أبوه . وأن يهجم على عدوّه فى بكور الصباح .

وخرج النبى وهو فى مرض الموت ، فرقِىَ المنبرَ وأوصى المسلمين بأن
يتبَعوا جيش أسامة . ثم قال : « لإن قلْتم فى إمارته شيئاً فقد قلتم فى إمارة
أبيه من قبل . وإنه لأهلٌ للإمارة كما كان أبوه أهلاً لها »

واستأذن أسامة النبيَّ فى صحْوة الموت أن يخرج فأذِنه . ثم عاد أسامة
من الطريق بعد أن بلَغَه موت النبى ، فدخل المدينة فغرَس رايته عند باب
عائشة . ودخل يصبُّ الماء على جسده الطاهر للغسْل ، من فوق قميصه .

وتحدّث المسلمون مرة أخرى فى إمارة أسامة على الجيش ، وفيه مَن هم

أسَنّ منه وأكبر. واعترَض عمر على إمارته وبعثِه . ولكن أبا بكر أبىٰ إلا أن ينجِزَ ما أمَر به رسول الله . وخرج أسامة أميراً على جيش المسلمين ، ورضيَ عمر . وسار مع أبي بكرٍ خلف القائد الفتىٰ يودّعانه . فلما افترقوا استأذن أبو بكر أسامةَ في بقاء عمر فأذِن .

* * *

لم تمض عشرون يوماً حتى أغار أسامة وجيشُه على البلقاء ، فثأَر لأبيه وللمسلمين ثأراً عظيما . وهزَم أعداءه شر هزيمة . وكانت صيحته وصيحةُ جنده وهم يهاجمون ويقتلون : « يامنصور أَمِتْ ». وانتصر أسامة وعاد إلى المدينة يمتطى الجوادَ الذى قتِل أبوه وهو راكب على ظهره . ويرفَع اللواء الذى عقَدَه عليه رسول الله بيده .

إمض بنا إلى حيث تريد

بقيَ النبي والمسلمون من المهاجرين والأنصار سنتَهم الأولى بعد هجرتهم إلى المدينة مطمئنين آمنين على دينهم ، بعد أن كانوا فى مكة يلقَون من عنَت المشركين وشدّتهم عليهم محنةً عظيمة . بقوا هذه السنة هانئين فرحين بتلك الأخوّة التى وثّق عُراها بينهم رسولُ الله، يقتسمون ما يملكون من متاع ومال فى شئون حياتهم ومعاشهم ، ويشتركون فى عاطفة واحدة من التفانى والمحبة وثّقتها بينهم وشيجة الدين وتلك القدوة المثاليّة الرائعة التى كانوا يرَوْنها فى الرسول الكريم . فلما جاءت السنة الثانية من الهجرة كانت قافلةٌ لكفّار قريش على وَشك أن تمرّ بمحاذاة المدينة فى طريق عودتها من الشام إلى مكة تحمل تجارة عظيمة لهم . وكان النبى عليه السلام قد أوقف من يرْصُدها ليعرف موعد قدومها . وجاء هذا الراصد يخبر النبىّ أن القافلة أصبحت قريبة من المدينة ، وعمّا قريب تمرّ بها . فجهّز النبى جيشاً صغيراً يزيد قليلا على ثلاثمائة ، وخرج به ليقاتل حرس القافلة ويستولى عليها ، جزاء ما لقيَ المهاجرون فى مكة من الأذى . ولكن المنافقين بادروا فأخبروا قريشاً خبر خروج النبى وجيشه ، فخرج المشركون فى جيش عظيم لإنقاذ تجارتهم وأموالهم .

لم يكن النبى والمؤمنون يعرفون أنهم سيلقَوْن جيشاً عظيم العَدد قوىّ العدّة ، فقد خرجوا لحرب جماعة قليلة فى حراسة القافلة ، فلما وصلوا بدراً وعرفوا أمر هذا الجيش جمع النبى أصحابه ليستشيرهم : هل يهاجمون القافلة ليأخذوا ما فيها من مال وتجارة ..؟ أم يحاربون عدوّهم فيأخذوا بثأرهم ، وينصروا دينَهم و يهزِموا جيش الشرك . . . أمّا الأول فأمرٌ يسير هيّن . وفيه من المغانم ما يُغرى النفسَ و يفتن القلب . وأما الثانى فأمر شاقٌّ عسير قد يكون فيه قليل من الغُنْم ولكنّ فيه شيئا عظيما مما يسعِد القلب و يغبط النفس و يشرح صدور المؤمنين : فيه رضوان الله وثوابه و إعلاء كلمته ونصْرة دينه .

وتحركتْ عند فريق من المسلمين الرغبة فى المغنم الهين اليسير ، خشى قلةَ عددهم وضعف استعدادهم فقال : يارسول الله ، لو أنك أخبرتنا أننا سنحارب لأخذنا للحرب عُدّتنا ، ولكن خرجْنا للقافلة ، وتحدث القوم فى ذلك حتى برز شاب من المهاجرين هو المقداد بن الأسود ، أو المقداد بن عمر ، فقال بصوت يفيض حماسة وقوة و إيمانا : يارسول الله ، إمض بنا لما أراد الله لك فنحن معك . واللهِ مانقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : « إذهب أنت وربُّك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون » ولكن نقول : إذهب أنت و ربك فقاتلا إنا معكما مقاتلونِ مادامت فينا عيون تطرف . والله

الذى بعثك بالحق لو ذهبتَ بنا إلى أرض اليمن أو الحبشة لسرْنا معك وحار بنا بسيوفنا وجالَدْنا نقاتل عن يمينك وعن يسارك ومن بين يديك ومن خلفك حتى تبلغ ما تريد .

وسمع أصحاب رسول الله ذلك فأيّدوا وتابَعوا وصدّقوا . فأشرَق وجه النبي و بارك الشابّ ودعا له بخير .

لقد آثرَ المقدادُ الحربَ والجهاد فى سبيل الله ، وسبيلُه أشقّ وأعسر ولاغنْم فيه قريب ، على أن ينال مغانم المال والتجارة وسبيلُها أهوَن وأيسرُ وأقرب . وكانت كلمته فيْصلاً الرأى لم يبق بعدها سبيل لمتردّد ولا خائف ولا ضعيف ولا طامع . ثم وقعت الحرب ، فى اليوم السابع عشر من رمضان ، بين جيش النبى وصحابته ، وعددُهم قليل ، و بين جيش الكفار يفوقهم فى العدد والعتاد . وثبَت المسلمون . وكان المِقدادُ من أعظم الذين أبلوا فيها شجاعةً وقوة ومقدرة : كان راكباً فرسه الذى يسمّى « سَبْحة » مستقيمَ الصدر عالىَ الرأس حديدَ البصر يرمى نبْله عن فرسه فيصيب ، و يضرب بسيفه كواهل الأعداء ورؤسَهم فيَهشِم و يمْحَق . وكان رسول الله يخرج من عريشه فيقاتل و يشجع المؤمنين و يحرّضهم ويذكّرهم قولَ الله : سيهزم الجمع و يولّون الدّبر . وكلما سمع المقدادُ ذلك أقدَم وأقدم ، وأمعَن

فى القتل . ولم يكن فى جيش المسلمين يوم ذاك ، كما روى الإمامُ علىّ ، من يركب فرساً سواه .

فلما أتمّ الله نصرَه على المؤمنين كانوا قد قتلوا سبعين رجلا من المشركين ، منهم أربعة وعشرون من أشراف قريش . فيهم أبو جهل قائد الحملة ورأسُ الشرك ، وفرعونُ هذه الأمة كما وصفه النبىّ الـكريم . ولم يقتل من المؤمنين غير أربعة عشر .

وروىَ الصحابة عن النبى أنه قال : أمرنى ربى أن أحبّ أربعةً وأخبرنى أنه يحبّهم . وذكر منهم بطلنا الشاب : المقداد بنَ الأسود ، الذى شهد مع رسول الله غزواته كلها . وكان ، كما يقول رواةُ السّيرة ، إذا وقع سيفُه على رجل شاطَ الرجلُ كما يشيط الثوبُ فى النار ... !

أصبرُهم على الجوع والعطش

شاب من أكرم شباب العرب حسَباً وأعزها نسباً . عندما بعثَ الله محمداً رسولا نبيًّا أسلم وأخَوانِ له وثلاث أخوات . فكان هؤلاء من أول من آمن بالنبيّ ودخل فى دين الله . وكان السابقون إلى الإسلام يلقَوْن من قسوة المشركين وشدّتهم بلاءاً عظيما وعذابا شديداً ، وقد لقىَ من العذاب والقسوة ما لا طاقة له به ، رغم صبره واحتماله وجَلَده ، فهاجر إلى الحبشة . ولكنه لم يقِم فيها طويلا حتى عاد إلى مكة ، ثم هاجر منها إلى المدينة حينما هاجر النبى إليها .

كان عبد الله هذا شاباً عظيم الشجاعة فى الحرب ، عظيم الصبر على المحنة والألم والشدائد ، وهو ، إلى ذلك ، رقيق العاطفة عميق الإيمان . اختاره النبى عليه السلام قائداً على أول سرِيّة خرجت للقتال ، وعقد عليه أول راية رفعت للحرب : تخيّر النبى جماعة من المسلمين فجَمَعَهم ثم قال لهم : سأجعل عليكم قائداً هو أصْبَرُكم على الجوع والعطش . ثم اختار عبد الله هذا فكان أول أمير للحرب فى الإسلام .

فلما التقى عبد الله وسريّته بالمشركين وهم فى تجارتهم إلى الشام كان اليومُ

الأخير من رجب . والقتال فيه محرم عند المسلمين والمشركين . ففكّر وقدر ، واستشار قومه ثم انتهى الرأى إلى الحرب . وكان النصر لعبد الله ، فقتَل وأسر وأخذ إلى النبى نصيبه من الغنيمة . فلما علم رسول الله ذلك غضب من إقدامهم على الحرب فى شهر حرّمت الحرب فيه . وحزن عبد الله وقومُه حزناً شديداً وندموا على ما فعلوا . ولكن الله شرّفه وشرفهم ، فنزلت فيهم آية كريمة تقرّ ما فعلوا وتحسّنه ، فكان فرحهم عظيما بتصويب عملهم وبما نالهم من الشرف العظيم حين نزلت فيهم آية من القرآن . وقال عبد الله فى ذلك شعراً يردّ به على المشركين .

وكذلك كان عبد الله عظيم الإخلاص فى إيمانه . أراد النبى عليه السلام أن يزوّج أخته زينب إلى غلامه ومعتوقه زيد . ووجد عبد الله فى ذلك معرّة كبيرة ومنقصة بين أشراف العرب فعارَض هذا الزواج أوّل الأمر . فلما رأى رغبة الرسول فيه وإصراره عليه . رضىَ الزواجَ وباركه . وأمر أخته أن تقبل فلا تعصى لرسول الله أمراً مهما بلغ .

وجاءت غزوة أحد وكان المشركون قد هزموا قبلها هزيمة منكرة فى غزوة بدر . فأقبلوا على الحرب وقلوبُهم مملوءة بالحقد على المسلمين ، ونفوسُهم متعطشة للثأر لمن قتِل من سادتهم وأشرافهم . وكانت نساؤهم تسير معهم وتختلط بهم فى الموقعة تضرب الدفوف وتنشد أناشيد الحرب

وتحرّضهم على أن يشدُّوا على المسلمين فلا يبقوا على أحد منهم . وكان عدد المشركين خمسة أمثال عدد المسلمين .

وكان النصر فى أول النهار للمسلمين . ولكن فريقا منهم تعجّل فترك مكانه . وعاد المشركون فهاجموهم وحتى أجلَوْهم عن مكانهم . وأمعنوافيهم ضربا وقتلا . حتى أوشكوا أن يوقعوا بهم هزيمة فادحة ، واختلط الأمر على المسلمين حتى كان أحدهم يضرب أخاه بسيفه لأنه لا يعرفه أو لا يراه . ولم يبق حول النبي عليه السلام غير جماعة قليلة . والمشركون يبذلون غاية جهدهم حتى يصلوا إليه ليقتلوه . وكان عبد الله من هذه الجماعة القليلة التى أحاطت بالنبى تدافع عنه وتحميه . وظلّ يقاتل حتى كسر سيفه . ومع ذلك بقىَ ثابتاً فى مكانه يدافع و يقاتل إلى جوار النبى حتى قتل وكان من الشهداء .

ذلك هو عبد الله بن جَحْش .

يقول له النبيّ : فداك أبي وأمي

كانوا أربعة من الشباب فقط هم الذين قبلوا دعوة النبي للإسلام ، وأخفوا إسلامهم خوفاً من المشركين . ثم تقدّم شاب فدخل فى دين الله كما دخلوا . وكانت سنه يوم ذاك سبع عشرة سنة . أمه شريفة من أكبر أسر قريش نسباً وأعزهم جاهاً . فأحزنها إسلام ولدها أبلغ الحزن وأغضبها أشد الغضب ، وأقسمت أنها لن تأكل أو تشرب حتى يترك دين محمد. وصامت أياماً عن الطعام والشراب ، فلما ساء حالها قال لها ولدها إنه لن يترك دينه أبداً ، مهما تفعل .

ولما بدأ المسلمون يظهرون دينهم وصلاتهم كان المشركون يعتدون عليهم بالضرب والأذى . فلما تعرّضوا يوما لذلك أمسك بواحد من المشركين فشجّ رأسه ، وكان ذلك أول دم سال فى الإسلام.

ولما أرسل النبي أول جماعة للحرب بعد الهجرة كان منها هذا الشاب ، وكان أول من رمى بنبْلٍ فيها .

اشترك مع النبي عليه السلام فى جميع الغزوات والحروب بعد ذلك . ولما هزم المسلمون فى غزوة أحد ، وبقىَ النبي ليس حوله سوى عدد قليل ،

ونبالُ المشركين تصيبُه من كل ناحية حتى ظنّوا وظن كثير من المسلمين أنه قتل ، لم ينهزم سعدولم يترك مكانه ، بل ثبت إلى جوار النبي يدافع عنه ، وكان رسول الله يناوله النبلَ وهو يقول : — إرم أيها الشاب القويّ ... إرم فداك أبي وأمّي .

إختاره عمر لقيادة الجيش الذى أخرجه لفتح العراق . فكانت بينه وبين الفرس موقعة من أعظم المواقع وأهمّها شأنا وخطرا . هى موقعة القادسية التى دامت أياما . وهو وإن كان لم يشترك فيها بنفسه لمرضه ، إلا أن قيادته ومقدرته وابتكاره فى فنون الحرب كفلَت للمسلمين النصر . ويقول المؤرخون إن جيشه كان بين تسعة آلاف وعشرة ، وجيوش أعدائه كانت مائة وعشرين ألفا . وكان الفرس يسخرون من نبال المسلمين وسهامهم وأدوات حربهم وسيوفهم التى كان بعضها يلفّ فى خرقٍ من القماش القديم . ولكن العزيمة والصبر والإصرار على النصر والقيادةَ الشجاعة الحكيمة جعلت هذا الجيش ونباله وسيوفَه تهزم جيش الفرس . وتقتل قائده الشجاعَ رستم :

ثم سار بعد ذلك على المدائن ، عاصمة ملك الفرس . وهزم ملكها الشاب حتى أرغمه على الفرار ، وغنم فى هذه الموقعة مغانم لا تحصى وأصبح بذلك سيداً على العراق كله .

ولم تـكن لسعد بن أبى وقاص قدرة فائقة فى الحرب وحدها . فقد تولى بعد ذلك إمارة الـكوفة ، فصَلُح أمرُها وازدهر حالها . وبنى مدينة الـكوفة فأقام فيها مساكن عظيمة ، وشيّد قصراً رائعا فيه ترف وذوق وبراعة فى الهندسة والعمارة لا تقل عن براعته فى الحرب .

فاتح قبل سن العشرين

بدأت الفتوحات الإسلامية فى الهند ضعيفة متعثرة متباعدة . ينتصر قائد على جيش و يفتح مدينة ، و يأخذ أسرى . ولكن غيره يهزم و يقتل . حتى ولى أمر هذه الجيوش قائد بطل . كان فى سن يراه بعض الشباب سن اللهو والعبث والطيش .

شاب من أسرة أخرجت أبطالا . وكان أبوه بطلا وحا كما وزعيما . ورآه ابن عمه الحجاج قاهر العراق وحا كمها يحارب إلى جانبه ، فبهرته شجاعته ومقدرته ، رغم صغر سنه . فولاه قيادة الجيوش الغازية فى الهند . ومنذ قادها وهى تنتقل من نصر إلى نصر . حتى فتح بهذه الجيوش ، جميع بلاد السند .

ولم يكن انتصار محمد هذا سهلاً ولا يسيرا . فقد استعمل فيه كل حيلة و براعة فى الحرب . كانت معه آلة تشبه المدفع الذى يستعمل الآن فى الحروب الحديثة . وكان اسم هذا المدفع « العروسة » . وكانت هذه الآلة كبيرة ضخمة . يقوم بالعمل فيها خمسمائة جندى . وتقذف حجارة ضخمة تهدم الأسوار والبيوت . حاصر محمد مدينة كبيرة من مدن السند . ثم

وجّه قذائف « العروسة » إلى معبد كبير كان يقدّسه أهل المدينة . فخرج أهلها لحربه . وقامت بينهم موقعة استمرت ثلاثة أيام انتصر فيها القائد الشاب . وهرب حاكم المدينة وقائد جيشها ، فدخلها فاتحا .

وتسامع أهل السند بما فعل محمد . وعلموا أنه ترك بعض جيشه فى هذه المدينة وأنه فى طريقه إلى بقية البلاد . فخاف كثير من أهلها ومن حكامها وقوادها بطشَه وسيفَه . فسلّمت له ولم تحارب . وصالحه قوادها وحكامها على الشروط التى يرضاها . ووقفت مدينة كبيرة فى وجه جيوشه ، فلقيَت منها الخراب والدمار ولقىَ أهلها الفناء والموت والأسر .

ووجد ابن القاسم فى طريقه نهراً يعوق سير جيوشه . فأقام عليه جسراً عبر عليه بجيشه حتى التقى بملك السند ، ذاهِر ، ومعه جيش عظيم . وكان الملك يركب فيلا ضخما وحوله قوّاده على أفيالهم . واستمَرت الحرب بين الجيشين استمراراً شديداً . فلما بلغت المعركة غاية عنفها ، نزل ملك السند من فوق الفيل ، وظل يحارب اليوم كلَّه حتى قتِل فى المساء . ولم تغن ِ الفِيَلة عن أصحابها شيئاً ، فقد هربت بعد أن ألقت أحمالها وراكبيها . وداست بعضهم بأقدامها . وسار محمد إلى عاصمة ذاهر ، وكانت له امرأة فيها لم تشأ أن تسلّم للقائد الشاب ، فحاربَها حتى قهرها . فلما علمت أنها مغلوبة

لا محالة . وخشيت أن تقع أسيرةً فى يده . أحرقت نفسها وجواريها وجميع ما تملك .

و بقيت بعد ذلك مدينة كبيرة لم تفتَح ، ولم تصالِح . فلم يهدأ للقائد الشاب ضمير حتى فتحها بعد معارك طاحنة وفرّ ملـكها أو قتل . وقد دافع كثير من مدن السند جيوشه دفاعا مجيدا :

فى هذه الفتوحات التى قاد جيوشَها محمد ، قتل فى بعض المدن ، من أهل السند، ستة آلاف وحوصِرَتْ بعض المدن شهورا حتى كادت جيوش المسلمين أن تتركها ، لولا صبر قائدهم وحيلته. ونقص طعام الجيش حتى أكل جنودُه لحوم الحمير . ولـكنه ، بعد النصر ، حكَم السند خمس سنين. وأرسل إلى الحجاج فى دمشق — فى مدة الفتح وحدَها — عشرات الألوف من دنانير الذهب.

قد صدق الشعراء حين مدحوا محمداً بن القاسم فقالوا إن مجدَه وسؤدده كانا قريبين جدا من مولده . فهل يعرف الشبابُ كَمْ كانت سنّه حين حمل سيفه وخاض هذه الحروب الهائلة ، وفتح هذه البلاد التى كان فتحها حدَثاً من أعظم الأحداث فى تاريخ الإسلام بل فى تاريخ العالم. ؟

كانت سِنّه يوم ذاك سبع عشرة سنة ..!

وصدق مادِحوه ، بل واصِفوه :

قاد الجيوش لسبعَ عشْرة حجّة   ياقربَ ذلك مولِداً من سؤدُد

الفاتح الإفريقى

كان الفاتحون المسلمون يتقدّمون صوب الغرب من أفريقيا يخضعون الثائرين ، ويفتحون البلاد ، ويحصّنون المدن التى تدخل فى سيادتهم . وقائدهم ، موسى بن نصير ، يطارد الثائرين فى المغرب الأقصى . وكانت مقاومتهم تشتدّ وتعنُف كلما قاربت النهاية . وتحصّن الثائرون فى مدينة « طنجة » وقاتلهم المسلمون عليها قتالا شديدا حتى فتحوها ، وانتهى بذلك أمر الفتنة والثائرين .

وظهر فى هذه المواقع كلّها شاب جسور قوىّ يحارب ولا يهاب ، ويقاتل فيبطِش ، ويقتحم فيقتُل ، فكان له فى هذا النصر نصيب كبير حاز به إعجاب القائد موسى وكسب حبّه وتقديرَه . فاختاره موسى حاكما على طنجة . تقديراً لشجاعته وقوته ومقدرته وحزمه .

وسارت الأحداث بعد ذلك سيراً جعل موسى يفكّر فى غزو الساحل الجنوبى من أوربا . بعد أن انتهى من فتح شمال إفريقيا . فلما أذِن له الخليفة فى دمشق فى أن يقدِم على ذلك ، اختار بعض السرايا من الجند فى حملات

صغيرة نقلتها السفن ونزلت أرض أوربا فشهدت ما فيها من خصب وخير وجمال وثروة . ثم عادت بما تحمل من الغنائم .

أتم موسى بعد ذلك تجهيز جيشه . واختار قائدا له ذلك المقاتلَ الجسور الذى اختاره من قبل حاكما على طنجة . وحملت السفن القائد وجيشَه ، حتى نزلا فى الجانب المقابل . على جبلٍ لا يزال يعرف إلى اليوم باسمه . وكان أول مكان نزله هو ما عرِف بعد ذلك بالجزيرة الخضراء . نزلها قبل الفجر ، فصلى الصبح وعقد الرايات لقواده ، وأقيم بعد ذلك فى هذا المكان مسجد سمِّىَ : «مسجد الرايات» . وقال الرواة إن هذا القائد بعد أن أتم نقل جيوشه أحرق السفن التى حملتها . حتى لا يفكر أحد فى عودةٍ ولا فى فرار . وقالوا إنه خطبهم خطبةً معروفة مشهورة قال فيها : أيها الناس أين المفر : البحر ورائكم والعدو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر إسمحوا لأنفسكم بالموت وقد سمحْت به لنفسى معكم . واعلموا أنكم لو صبرتم على المشقة قليلا ، استمْتَعتم بالنصر طويلا ، وسأتقدم بنفسى إلى ملك القوط فأقتله ، فإن قتلنى قبل ذلك ، فلكم من قتلى عبرة وقدوَه فخذوا بثأرى منه .

وسواء أصح ماذكروه فى أمر السفن والخطبة أم لم يصح . فقد بدأ الفاتح الإفريقى يخترق الجزيرة ، ويفتك بجند الأعداء ، ويستولى على

البلاد والسهول . و بادر حكّام المدن فى طلب النجدة من رودريك ملك القوط ، فجمعَ هذاجيشا قدّره الرواةُ بمائة ألفٍ سار هوَ على رأسهم . وكان جيش العرب سبعة الآف من العرب والبربر ، ثم أمَدّه موسى بخمسة آلاف . وكان يساعده بعض الخارجين على رودريك .

إثنا عشر ألفاً يقاتلون مائة ألف ، يقاتلونهم على أرضٍ لا يعرفون مسالكها ولا بلادها ولا زروعَها ولا ماءها ولا طبائع أهلها ، وهؤلاء يقاتلون فى بلاد يعرفون عنهاوعن طبيعة أرضها كل شىء . وكان اللقاءالحارّ فى سهل فسيح ، سهل شُريش ، وكان فى رمضان من أيام صيف حارة . وابتدأ القتال ، ودام فى عنف وقوة أربعة أيام ، أبدى فيها الفاتح الإفريقى من ضروب البسالة والقوة والصبر ما أبدا ، وأظهر فيها قائدُهم كل مايملأ قلبه من الشجاعة ، وعقله من الحيلة والبراعة والمقدرة ، وجاء عيد الفطر والحرب فى شدّة وسعير، ولكن لم يجىء اليوم السابع من بدء الموقعة حتى كان جيش رودريك فلولاً تسرع إلى الهرب ، وتسير بلا هدى، وسيوف الفاتح الإفريقىّ فى أقفيتهم .

ولم يقتل الفاتح الجسورُ غريمَه رودريك ، كما كان يرجو ، ولكن رودريك قتِل بالفعل فى هذه المعارك : مات فى النهر القريب منتحراً ،

أو مقتولا ،أو مهزوماً انطلقت به فرسُه فلم يستطِع أن يردّها حتى غرقتْ به « لا أحدَ يدرى. ولكنه غرق فى النهر على أىّ حال . وسار القائد بعد ذلك إلى الشمال يفتح البلاد و يستولى على المدن والقرى والسهول حتى بلغ طليطلة عاصمة مملكة رودريك ، فاستولى عليها . وكان بذلك أول عربىّ فتح أوّل أرضٍ أوربية .

القائحُ الافريقىُّ هو طارق بن زياد ، والبلاد هى الأندلس .

الموت خيرٌ من الذّل

فرّق تسُد . قاعدة ليست جديدة فى علاقة الغرب بالشرق . ومذهبٌ قديم سلكه الغرب معنا منذ قرون ، واستطاع به أن ينال منّا نَيلا شديداً ، وأن يستولى أو يسيطِر على أقطار كثيرة عزيزةٍ من وطننا العربى . بل أن يُفقِدنا بعض هذا الوطن . وكان أفدَح ما أصابنا من هذه السياسة المفرّقة الهدامة ، وأعظمه شراً ونُكراً ، مأساةُ الوطن العربى فى الأندلس :

كان أبو عبد الله آخر ملوك بنى الأحمر أميراً على غِرْناطة ، بعد أن أثمرتْ سياسةُ « فرّق تسد » ثمرتَها من قبْلُ فى أمراء المسلمين ، فحارب بعضُهم بعضاً ، واعتدى بعضهم على بعض ، وانتصر بعضهم بأعداء العرب من ملوك فرنسا وأمرائها . وكان لأبى عبد الله عمّ يعيش فى غرناطة أيضاً . وأراد فردناند الخامس ملك فرنسا أن يقضى على هذه الإمارة الصغيرة التى بقيتْ للعرب فى أسبانيا ، فأوقَع بين عبد الله و بين عمه محمد بن سعيد . وقامت الحرب بين أهل الأسرة الواحدة والوطن الواحد والمدينة الواحدة . فكانت « غِرْناطة » قسمين : واحدٌ يحكمه عبد الله ، وواحد يحكمه عمه ابن سعيد ، والحربُ قائمة بينهما . وأعان فردنانْدُ عبدَ الله حتى انتصر على عمه . وكان فردناند ، فى واقع الأمر ، هو الذى انتصر . فقد انفرَد بعد ذلك بعبد الله ، بعد أن أضعفتْه الحرب وأنهكَت جنودَه وأنقصَت

موارده. ووجّه فردناند جيوشه التى كانت تحارب مع عبدالله . وجّهها لقتاله والاستيلاء على غرناطة . واختلط الأمر على الأمير ، وحار ماذا يفعل أمام خصمه القوى العنيد الماكر .

وكان موسى بن أبى الغسّان شابًا من أكرم شباب غرناطة أصلا وأشجعهم قلبًا وأعظمهم فروسية فى الحرب . فبادر إلى جمع جيش من الفدائيين الذين يسعوْن للموت ويقتحمونه ويسعَدون به . وكانت جيوش الفرنسيين على أبواب غرناطة تتهيأ لاقتحامها . فكان ابن أبى الغسان يخرج إليهم ليلا أو نهاراً فيقتحم عليهم خيامهم وحصونهم ويفتك بهم، ثم يرجع إلى المدينة بالأسلاب والغنائم والأسرى . وذاع اسم ابن أبى الغسان فى المدينة وانتعشَت روحها بأنباء غزواته وفتكه بالفرنسيين، وكانت فتيات غرناطة ونساؤها يتطلّعن إليه من وراء الحُجب وهو راكب فرسه ، يلبس درعا من الحديد ، وفى يده سيف مسلول ، ومن خلفه جندُه من الشباب ، فيزددْن له حبًّا وبه إعجاباً وإشفاقاً . وظنّ فردناند أن فى المدينة جيشاً عظيما فلم يقتحمْها . ولكنه ضرب عليها حصارا شديدا ، ورأى موسى أن الحصار أضرّ بالمدينة إضراراً شديدا ، حتى جاع فيها الأطفالُ والنساء والمرضى وأوشك أن يضعِف من قوّة شبابه المحارب ، فوضع نظاماً صارماً لتوزيع الطعام ، وخصّص طائفة من محاربيه للهجوم على مؤن الأعداء والاستيلاء

عليها . واستطاع موسى بذلك أن يجعل الحصار لا جدوى منه للفرنسيين ، وأن يعجِّل بالمعركة الفاصلة ، على أبواب غرناطة .

وكانت معركةٌ رهيبة قاسية بين جيشين غير متعادلَين : الفرنسيون كالطوفان الجارف ، عددهم وفيرٌ وسلاحهم كثير . والمجاهدون قِلّةٌ ضِعاف ، ولكن شجاعة موسى ومن معه كانت لا تقهر ولا تغلب ولا تلين . فقتلوا من عدوّهم مقتلة عظيمة . ولما رأى موسى كثرتهم وقلّة رجاله ، أسرع راجعا إلى المدينة وغلّق أبوابها من خلفه ولم يمكّن الأعداء من دخولها .

وجمع الأمير أبو عبد الله رجاله ومستشاريه ليتدبّر معهم الأمر . وأخذ حاكمُ المدينة يحدّثه عن أمرها ومن قتِل من رجالها وأنها على وشك أن ينفدَ منها الطعام والزاد ، وأن يحلّ بأهلها الجوع . ورأى عبد الله ورجاله ومستشاروه أن يستسلموا و يسلّموا . ولكن موسى بن أبي الغسان أبى وقال:
— خير لنا أن نموت ، وتهدَم المدينة ، ويقتل أهلها ، ولكنّا لا نسلّم .

وجاء إلى أبي عبدالله رسولٌ من عند فردناند بشروط للصلح ، فقبلها هو ومستشاروه . وقام الأمير فحمل مفاتيح المدينة ليقدّمها إلى فردناند ، بينما خرج ابن أبي الغسان يلبس درعه ، ويركب فرسه ، ويرفع سيفه ، ومِن حوله الأبطال من الشباب . فاقتحموا على جيش فردناند مواقعه . وقد تعاهد الجميع على الموت . وظلوا يحاربون ويتساقطون صرعى واحداً بعد واحد .

ورأى الفرنسيون فارساً يلقى بنفسه على الجموع فيقتُل منهم ، ثم يسرع إلى غيرهم فيبطش بهم سيفُه ، فتكاثروا عليه بسيوفهم ورماحهم من كل ناحية. ولـكن درعه من الحديد ، وقوة بأسه ، وخفّة حركته . جعلت سيوفَهم ورماحهم لاتصيب منه مقتلا . وبعد أن شفى ابنُ أبى الغسّان غليل قلبه من أعداء وطنه ، وروّى سيفه بالغزير من دمائهم . وأيقن أنه لم يعد مفرّ من الموت . أسرع إلى النهر فألقى نفسَه إلى موجه . وسيفُه فى يده .

وطوى النهرُ جثّة هذا البطل الشهيد ، كما طوى الدهرُ صفحة المجد العربىّ فى الأندلس .

يزيد بن مَزِيد

فى بيت من أمجد بيوت الشجاعة والفخر والفروسية والحرب . ومن أسرة لها فى تاريخ الأمة العربية أمجاد وعَراقة وذكر . أسْرته : بنى شَيْبان ، وأبوه مَعْن بن زائدة . من هذا الأب وفى هذه الأسرة وهذا المجد وِلِد وتربىّ حتى صار رجلا محاربا وأميراً على سِجِسْتان وعلى أرمينيّة . وقائداً ينْدُبُه المنصور ، والمهدى ، والرشيد لأن يذود بسيفه عن دولة الخلافة ومجدها فيَذود ، ويخلّص الدولة من شرّ عظيم وخصوم أنقصوا الدولةَ من أطرافها وأوشكوا أن يفُضّوا عِقْدها وأن يذلّوا عزّها .

خرج على المهدىّ يوسفُ بن إبراهيم ، وحارب جند الخلافة ، حتى استفحل شرّه وزاد خطره ، فنَدَب له الخليفة يزيدا . وتلاحَم الجيشان واقتتل الغريمان حتى تغلّب يزيد وأسَرَ يوسف بن ابراهيم فبعَث به ذليلا إلى المهدى .

واشترك مع الرشيد فى غزواته على بلاد الروم حتى وقف للمبارزة مع أميرهم وقائدِهم « نفيطاً » فقتَله . وهزمت الروم .

وكانت هناك جفوةٌ بينه وبين المنصور . حتى عزَله عن الولاية واستَصْفى أمواله وأمر بسجنه ، واستطاع يزيد أن يختفى ويترقَّب . فلما ثارت الخوارج على الخلافة لم يجد المنصور لحربِهم سواه . وبرَز لهم يزيد لحاربهم حتى قهَرَهم وردّ للدولة أمنَها واعتبارَها .

وثارت الفتنة الكبرى على الرشيد بقيادة الوليد بن طريف ، ابن عم يزيد — واستطاع هذا الخارجىُّ أن يستولى على أقاليم كثيرة من بلاد الخلافة، وأن يهزم جيوشها ويقتل قائدَها . فندَب له الرشيد يزيدا . وطلَب أن يلقاه ، فلما دخل يزيد عليه قدّم له الرشيد سيفاً ثم قال له : هذا السيف الذى قلّدته لك ، هو «ذو الفقار» سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم . أعطاه لعلىّ . ثم انتهى إلى الخليفة المهدى ثم إلى أخى الهادى ثم صار إلىّ . وهأنذا أقلده فخر بنى شيبان ليهزم به عدوّنا ويؤيد به دولتنا . فأجابه يزيد : « عدوّ أمير المؤمنين ، بإذن الله، مقهور . وجيشه بقوة الله منصور» .

وسار يزيد لحرب ابن عمه الوليد ، وطالت بينهما واحتَدَمَتْ المواقع والخطوب ولكن أحدَهما لم ينتصر ، حتى استبطأَ الخليفة النصرَ وكتب إلى قائده كتاباً فيه شىء من العتاب والملامة . وصمّم يزيد على أن ينال إحدى الحسنيين : النصر ، أو الموت. والتقى الجيشان يوماً فبَرَز يزيد ينادى خصمه : يا وليدُ مالَكَ تتَستّر بالرجال . . أخرج إلىّ فإمّا قتلْتَنى أو قتلتُك .

وخرج له ابن عمه الوليد ، وتبارز البطلان ، والجيشان واقفان ينظران . ودامت بينهما المبارزة ، كل منهما يطارد صاحبه ويحاوره ويثب عليه يريد أن ينال منه مقتلاً . حتى استطاع يزيد أن يضرب رجل الوليد فسقط على الأرض . وتكاثر الجند عليه فقتلوه ، وأرسل يزيد البشائر بالنصر إلى الرشيد ، ومعها رأس الوليد .

وتناقل الناسُ أنباء هذه البطولة وهذا النصر . وقال فيه الشعراء ، حتى وضع مروان بن أبى حفصة يزيداً فى المنزلة الثانية بعد الخليفة ، وسمّاه أسد العرب :

يا أكرم الناس من عُجْمٍ ومن عرب   بعدَ الخليفه ، يا ضرغامة العربِ
إن السِّنان وحدّ السيف لو نطقا   لحدّثاعنك فى الهيجاء بالعجبِ

* * *

وشملَ الفخارُ بيت يزيد وأسرتَه . وتحدث أهلُه عن قصّةٍ وقعت فى صباه بين أمه وأبيه ، طالما تناقلوها وتذاكروها وتحدّثوا بها : فقد كانت أمه تحِسّ أن أباه يتعلّق به ويحبّه أكثرَ من إخوته ، وتحدثَتْ إليه فى ذلك مرّة بعد مرة ، وأراد الأب أن يظهر لأمّه أن هذا الصبى حرِىٌّ أن يحبّه ويقدّمَه ويتعلّق به . فطلب إلى خدمِه فى ساعةٍ من ليلٍ أن يُحضِروا إليه أولاده

جميعاً ، فقام الأولاد من نومهم وسارعوا إلى لقاء أبيهم فى ثيابهم من الحرير . ثم جاء بعدهم يزيد يحمل سلاحه : السيفُ والرمح فى يده ، وفى وسطه منْطَقتُه ، ودرعُه يحيط بصدره . وسأله أبوه : ما هذه الهيئة يايزيد؟ فأجابه . يطلبنى أبى فى هذه الساعة من الليل فحدّثتنى نفسى: لابد أن أمراً كبيراً هو الذى جعله يفعل ، فإن كان خطْباً أو أمراً أسرعت لما تأمرنى ، وإن كان غير ذلك فنزْع سلاحى يسير .

فعذرت أمّه أباه فى حبه وتقديمه . وعلِمتْ أنْ سيكون من هذا الفتى بطلٌ يتحدث عنه الناس .

وقد كان . . !

الأعمى

لم يمضِ شهران على دخول نابليون القاهرة حتى بدأ المصريون يُفيقون من أثر الهزيمة التى أوقعهم فيها مراد والمماليكُ بغرورِهم وطيشهم وجهلهم . و بدأ أهل القاهرة يجمعون أمرهم استعداداً للثورة والانقضاضِ على الغزاة الذين دنّسوا أرض وطنهم .

أخذوا يجمَعون ما أخفوا من السلاح والذخيرة ، و ينظِّمون شئون الحرب ، وألّفوا من بينهم هيئة لقيادة الثورة كان مقرّها الأزهر ، ورئيسها عالم من أكبر علماءه : هو الشيخ السادات .

وشهد الناسُ يوماً شابًا قويًا جهير الصوت يسير فى أحياء المدينة : فى شوراع المشهد الحسينى ، والغورية ، والمتولّى . ثم فى شوارع الحسينيّة ، وباب النصر ، و باب الفتوح . يسير فى شوارع هذه الأحياء وأزقّتِها وحاراتها ودروبها رافعًا رأسه يدعو الناس بصوته القوىّ للثورة فيقول : الحربَ الحرب ... الجهادَ الجهاد ... الحربُ فريضةٌ واجِبة، الجهاد فريضة واجبة · الحرب واجبة كالصلاة · الجهاد كصوم رمضان . حىّ على الصلاة حىّ على الجهاد .

كان الناس يرَون هذا الشاب ويسمعون صوته كل يوم . ثم ينتهى مَطافه إلى الجامع الأزهر . وكان هذا الصوت القوىُّ يملأ نفوسَهم بالعزم والقوة والتصميم . ويضاعِف حماستهم وإصرارهم على أن يلقِّنوا هؤلاء الغزاة درساً لم يستطع المماليك أن يلقّنوهم إيّاه .

وجاء اليوم الحادى والعشرون من شهر أكتوبر سنة ١٧٩٨ وقد أصبحت القاهرة كلها متحفِّزةً للثورة . وبدأ الرجال والشيوخ والصبيانُ والنساء أيضا يخرجون من مخابئهم ومكامِنهم ويفْتِكون بالفرنسيين فى كل مكان . فإذا تقدّم هؤلاء لحربهم أوقفَتْهم المتاريس التى أقامها أهل القاهرة أمام بيوتهم وعلى رءوس الشوارع والحارات والمسالك . واشتعَلت الثورة وزاد لهيبها يوماً بعد يوم ، وقدِم الفلاحون من الضواحى القريبة : من الجيزة والمطرية ، والزيتون ، والمرْج ، وسرياقوس ، وقليوب ، للاشتراك فيها .

واستطاع الثائرون أن ينالوا من الفرنسيين منالاً شديدا ، وأن يقتحموا مقرّ قيادة نابليون فى الأزبكية . وقتَلوا الجنرال : «دِبوى» حاكمَ القاهرة والجنرال : « سلكوسكى » ، وكان من أبرع قواد نابليون وأشجعِهم وأحبّهم إلى قلبه . كما قتلوا ، فى يومين ، مائتين من ضبّاطه وجنوده .

ولم تقف الثورة — إلى حين — إلا بعد أن نصَب نابليون مدافعه

حول القاهرة تدكها بقنابلها من غير تمييز . ليلاً ونهاراً . وبخاصة الجامع الأزهر . وبعد أن اقتحمه جنده وعسكرت فيه خيوله .

وكان المجاهدون فى أيام الثورة هذه يشهدون ويسمعون ذلك الذى يدعوهم للحرب كما يدعوهم للصلاة . فتشتد عزائمهم بصوته ودعوته . ثم انقطع سيره وصوته فلم يعودوا يرونه أو يسمعونه .

وعرف أهل القاهرة أن الفرنسيين قبضوا — ضمن الكثيرين الذين قبضوا عليهم — على ستة من علماء الأزهر ، كان منهم هذا الداعية المجاهد .

وذهب كبار الشيوخ يستشفعون لهؤلاء العلماء ويطلبون من الفرنسيين إطلاق سراحهم ، فقالوا : إننا حبسناهم فى بيت الشيخ البكرى تكريماً لهم ، وسنطلق سراحهم بعد قليل . ومكر الفرنسيون بأهل القاهرة وبالشيوخ الشفعاء وخادعوهم فى هؤلاء الستة . ثم علم الناس أن الفرنسيين قتلوهم ... أطلقوا عليهم النار . وقطعوا بعد ذلك رءوسهم ، ثم ألقوهم فى النيل ... !

وحزن أهل القاهرة على شهدائهم حزناً شديداً . وكانوا أشد حزناً على هذا الشيخ الشاب الذى كان يدعوهم ويحرضهم . الشيخ سليمان الجوسقى .

كان شابًّا قويًّا ذا مهابة وصرامة وعناد، يشتغل بالعلم فى الأزهر، ويشتغل بالتجارة. جمع ثروة كبيرة من كفاحه وكدْحه: توسَق السفنُ من بلاد الصعيد باسمه، قمحاً. فيتلقّاها رجاله فى القاهرة، فتطحَن دقيقا فى مطاحنه، ثم يبيع الدقيق فى الأزهر.

وكان، فوق ذلك، أعمى ..!

فتى من الصعيد

نزلتْ جيوش نابليون إلى الصعيد، بعد دخوله القاهرة واستقرارِه فيها. وكان الجنرال ديزيه ، قائد الجيش الذى نزل إلى الصعيد ، يبعث برسائله كثيرةً متلاحقة إلى نابليون وخلفائه وكلها تفيض بالشكوى من عنف المقاومةِ التى تلقاها جنوده فى كل بلدةٍ وقريةٍ من بلاد الصعيد وقراه .

وكان مراد بك كبير المماليك ، بعد هزيمته فى معركة امبابة ، انحدر إلى الصعيد ليحارب الفرنسيين . ولكنه بعد ذلك صالحهم ورضى أن يكون حاكما على الصعيد من قبَلِهم . فكان حرباً على المصريين ونصيراً مخلصاً - بل خادماً - للفرنسيين . ولكن ذلك كله لم يضعف من مقاومة أهل الصعيد وبسالتهم واستماتتهم فى الدفاع عن شرف الوطن . وكلما أمعن ديزيه وجنودُه فى التقدم إلى الجنوب ، كلما زاد ما يلقى مِن بلاء وحرب وعنفٍ فى المقاومة .

وكانت جماعةٌ من الجنود الفرنسيين تسير قد أنهكها الجهد والتعب ، فجلس أفرادها إلى ظلّ شجرةٍ يستريحون . وتقدّم صبىٌّ مصرىٌّ يتسلّل فى حذر حتى جاور واحدا من الجنود فهاجمه واستطاع أن ينتزع منه بندقيته .

وقبل أن يطلقها على الجندى ، أسرع جندىّ آخر فضربه بالسيف على ذراعه فجرحه وأسقط البندقية من يده .

وأخذ الجند هذا الصبىّ إلى القائد العام الجنرال ديزيه .

وكان نابليون وهو فى طريقه إلى الإسكندرية نَزَل جزيرةَ مالطة فاحتلّها، ووجد فيها كثيرا من الأسرى يعرفون اللغة العربية ، فأطلق سراحهم واستخدم كثيرين منهم مترجمين .وأخذ ديزيه يتحدث إلى الصبىّ المصرى الشجاع – عن طريق مترجم – فسأله عن شركائه فى العدوان على الفرنسيين ، وعن الذين يحرضونه على المقاومة أو يشتركون فيها من أهل بلده ، وعمّن دفعه لأنْ يفعل ما فعل . فأجابه الصبي المصرى بقوله : – ليس لى شركاء ولا محرّضون . وقد أمرنى ربى بأن أقتل من أستطيع قتله من الفرنسيين. وكل مصرى مجاهد يشترك فى هذه الحرب المقدسة بكل ما يستطيع .

وأعاد ديزيه هذه الأسئلة على الصبىّ مرة بعد مرة ، فلم يسمع منه غيرَ هذا الجواب ، فسأله : — ومن كنت تريد أن تقتل من الجنود بالبندقية التى خطفتَها ..؟ فقال : – كل من أستطيع قتلَه . ولو استطعت قتلك أنت لفعلت . فقال له ديزيه . – إنك طفل صغير لا تعرف العقوبة التى تحلّ عليك بما فعلت . ولكنى أعفو عنك وأعطيك نقوداً إذا أخبرتنى عمّن حرّضك . فقال له الصبىّ . – لن تسمع منى جواباً غير ما سمعت . إنك تهدّدنى بالعقوبة ، فإليك رأسى فأمر بقطعه .

عند ذلك خرج ديزيه عن طوره ، وازداد غضباً وطيشاً وحماقة . وأمر الجنود بأن يأخذوا الصبي فيجلدوه ثلاثين جلدة . وأخذه الجندُ فكشفوا عن ظهره ، عارياً ، وضربوه ثلاثين جلدة . فلم يصرخ ، ولم يبكِ ، ولم يرتفع له صوت ، ولم تتحرّك من جسده جارحة . حتى عجِب الجند من أمره كل العجب . ثم أمر ديزيه بعد ذلك بإطلاق صراحه .

وعندما غادر الصبيّ معسكر القائد العام ، أراد الفرنسيون أن يعبَثوا به ويخيفوه . فلما ابتعد عنهم خطوات ، أطلق جنديّ رصاص بندقيته فوق رأسه . ولكن الصبي لم يخف ، ولم يفزع ، ولم يدِرْ رأسه إلى وراء . ولم يسرع فى سيره . بل مشى فى طريقه كما كان ، شامخ الرأس .

وخرج جيش نابليون من مصر — أو مَن بقى من أفراد جيشه — وسجّلت المصادر الفرنسية شجاعة هذا الصبي . كما ذكرتُ أن ديزيه كان يذكر على الدوام هذا الصبي المصريّ الشجاع ويقول إنه لو أحسنتْ تربيته لكان منه بطل عظيم .

لا نعرف اسم هذا الصبيّ . ولكننا نعرف أنه كان من بلدة الفقاعى ، مركز ببا — ولعلّه ابنُ فلاح فقير فيها — وأنه كان يوم ذاك فى نحو الرابعة عشر من عمره . ونحن وإن كنّا لا نعرف اسمه ولا أسرته ، فنحن نعرف كيف نحيّيه ونمجّد شجاعتَه وذكراه .

كتب للمؤلف :

١ — دراسات فى تاريخ الجبرتى ، مصر فى القرن الثامن عشر
ثلاثة أجزاء

نال الجائزة الأولى من مجمع اللغة العربية ١٩٥٦

صدرت الطبعة الثانية

٢ — الدين والضمير : ١٩٥٨

٣ — تقويم الفكر الدينى وصلته بالقومية العربية : ١٩٦٠


مطبعة لجنة البيان العربي